رواية

الكيلو ١٠١
الوجه ... والقناع

سعيد سالم

دار ومطابع المستقبل بالفجالة والإسكندرية
ومكتبة المعارف ببيروت

الإهـداء:

أدمنت قرع الأبواب حتى أدميت كفى ولم يفتح لى أحد ،

ولما زال حجاب الغفلة عن قلبى تركت الأسباب ولجأت إلى المسبب ...

فكتبت هذه الرواية إلى الله .

الراوى

الحاج أحمد الجدار

أكتوبر ١٩٩٤

مقدمــــة

لم أكن على معرفة بقدر عالم الملكوت ، إذ لم أتنزه يوما من قبل فى عجائبه أو أستبصر أنواره بقلبى ، بل انى لم أكن قد فهمت أن جنته أعلى النعيم ، وأن النظر الى نور جلاله منتهى الكرامات ، وان رضاه غاية الدرجات وسخطه غاية الدركات .. وحين وقفت أمام مقام السيدة زينب رضى الله عنها قال لى الشيخ الذى أراه لأول مرة :

- لماذا تأخرت كثيرا ؟ .. أدخل انها تريدك .

ودخلت تحفنى أنوار ما أدركت مصدرها ، وتصحبنى زغاريد من خارج الصحن لم أطرب لسماع مثلها من قبل ، وأبصرت بعينى أجنحة بيضاء ترفرف من حولى ، واهتزت حلية المقام عند رأس السيدة فاطمة رضى الله عنها الى اليمين تارة وإلى اليسار تارة عدة مرات فلم تتوقف عن الاهتزاز الا بختام دعائى .

أصاب سائقى الذهول فسألنى وقد اتسعت حدقتا عينيه حتى كادت جبهته ان تتلاشى :

- هل ترى ما أراه ؟

أومأت اليه مشيراً بالصمت والسكون .

وعند الباب انكب علي يدى يقبلها وقد غمرت عينيه الدموع وهو يقول :

- أدع لى يا سيدنا الشيخ ، بارك الله فيك .

من يصدق ؟

من كان يتصور ولو للحظة بارقة أننى كنت يوما أحد طرفى هذا الحوار ؟ :

- أنا مجنونة بحبك . أتوسل اليك الا تتركني .

- افهمي جيدا يا دليلة . أنا انسان ملول شديد الضجر عدو للثبات على أي حال وتقلبي لا حدود له .

- سأصبغ نفسي كل ليلة بصبغة مختلفة . لن أكون لك يوما مثلما كنت في اليوم السابق له .

- كيـــف ؟

- ستجدني يوما طبيبة ويوما خادمة ويوما أستاذة في الجامعة ، وأعدك أنني سوف أسحق لك الملل والضجر والعادة .

من يصدق ان هذا قد حدث ؟

- اطمئن يا جدار يا ابني .. سأعتقل لك هذا المجرم وأنتزع أرضك منه .

- أنا لا يسعدني اعتقاله يا سيادة الوزير . أريد فقط ان أسترد أرضي .

- كل يا أحمد .. ألا تعجبك ساندوتشات الفول ؟

هؤلاء هم وزراؤنا ، فالحمد لله على ما منح وما منع ..

- هل تعرف أن عمك هو الذي علمني العسكرية الحقة ؟

وبعينـي رأسـي رأيته بعد أسبوع يتناول العشاء مع اللص في أحد الفنادق الكبرى ، وكانت ضحكاته تجلجل في أرجاء المطعم الفاخر .

ومهما شطح الخيال وجمح ، فانه لن يبلغ مبلغ ما وقع :

- أنا الجنرال ايزاك شارون .

كان ينظر الى وسطى باحثا فى دهشة عن طبنجتى اذ كان مكانها خاليا .

- وأنا أحمد الجدار .

- إنى أتعجب كيف قبلت لقائى فى هذا الموقع وأنت أعزل من سلاحك الشخصى رغم كل ما بيننا من دماء ؟

لم يكن يدرى أن نهايته كانت مرهونة بأن يرفع يده ولو ليهش بها ذبابة حامت بالمصادفة التعسة حول وجهه .

- أردت أن أوضح لك الفارق بين قائد مصرى وقائد اسرائيلى .

ابتلع جفاف ردى وجفاءه وقسوته واغتصب ابتسامة :

- انى سعيد بمعرفتك ولسوف أتباهى بين أقرانى بمعاركى معك .

فوجئت به يقدم لى بطاقة صغيرة .

- ما هـذا ؟

- عنوان ورقم تليفون منزلى فى تل أبيب .

- وماذا أصنع بهما ؟

- ربما فكرت فى زيارتى يوما بعد أن يحل بيننا السلام .

- يبدو أنك رجل شديد التفاؤل ، فحيائى يمنعنى من وصفك بالجنون .

ومن ذا الذى يقبل عقله قدرا من التناقض يحيل الثواب عقابا والعقاب ثوابا فينقلب العدل ظلما والحق افتراء ؟

قال سيد بسيونى الذى يتاجر فى ملابس المحجبات :

- أنا أعرف انها أرضكم ولكنى لن أتركها الا على جثتى .

- أتقبل هذا على نفسك وأولادك ؟

رأيت فى ابتسامته اصفرار وشممت من فمه عطنا وهو يهدد ساخرا :

- أنا وزوجتى لا ننجب ، وأعلى ما فى خيلك اركبه ، فكل الرؤوس الكبيرة فى جيبى ، وسرعان ما سوف تأتى صاغرا لتقبل ما أقرره .

****

انتهت المقدمة ولكل مقدمة نهاية .

أول المحبة وأوسطها وآخرها :

حقائقى مؤكدة موثقة ، وعلى أولئك الذين يفرقون كثيراً بين الخيال والحقيقة أن يتخلوا عن أوهامهم ، فأى شئ فى هذه الحياه وفى هذا البلد يمكن ان يحدث ، وأغلب ظنى أنه ليست هناك قاعدة حاكمة من صنع البشر ينبغي ان يخضع لها سير الاحداث سواء قبل ان تقع أو أثناء وقوعها أو حتى بعد أن تقع . وخير دليل أسوقه على صدق ما أقول هو حالى فى عالم الملك ومقامى فى عالم الملكوت . أتشبث بعصبى وأسنانى بأرضى التى سرقت ، وأتعلق بالروح والفؤاد بنور الفيوضات العلوية والنفحات الربانية .. أتوق الى وصل يغنينى عن خلاياى الحية فأنجو بروحى من النتن والعفن . أعلم اننى سواء استرددت أرضى أو فقدتها فمصيرى هو القطنة والكفن ، ولكنى لا أكف ولا أستطيع أو أملك أن أكف عن ارتياد قاعات المحاكم واستئجار كبار المحامين وصغارهم ، اذ لا يختلف هؤلاء عن أولئك مثقال ذرة فى تعطشهم الجهنمى إلى أوراق البنكنوت ونهمهم الجنونى اليها بالحق أو الباطل .

حرقوا أعصابى والمحبة أولها حرق . أغرقونى فى ضلالهم والمحبة أوسطها غرق . قتلونى فى سرائرهم والمحبة آخرها قتل .. فبحق ابراهيم يا عاشقتى وبحق موسى يا وزيرى وبحق عيسى يا سارقى ، اننى لم أعد أسمعكم وأبصركم . وجودكم فى غفلتى وعدمكم فى انعتاقى من أسر نفسى ، وذكر المحبة يا مولاى أسكرنى .. فهل رأيت محبا غير سكران ؟

قضيتى يامولاى قضية محبة ، فحين ضاعت الارض أدمنت الصبر وأدمنه

معى اخوانى فى الجيش والبيت والشارع والشرايين والنخاع وتحت الجلد . كانوا يتجرعون جميعاً مرارة الهزيمة فى ألم بليغ ، ولكنى لم أكن مثلهم ، فما حدث عام النكسة أصابنى بداء العزم وأدخلنى باب المجاهدة ، ففهمت انها اشارة النصر المرتقب ، وأعددت جسدي ليكون فداء للمهمة المقدسة .

كنت على يقين من جدارتنا بالنكسة اذ نقضنا قانون الله فى أرضه فجعلنا عالى الأمور سافلها ، حتى أننى عرفت كثيرا من البسطاء كانوا سعداء بما حدث لأنهم فى كل الاحوال مغلوبين على أمرهم ، أما فى حال الهزيمة فقد شمل الانكسار الجميع .. الضباط والحكام والزبانية والاثرياء والارض الضائعة .. والبسطاء . أدركت هذا يوم أن شيعت جنازة عبد الناصر قبل تخرجى فى الكلية الحربية بيومين .. طوفان من البشر غارقين فى دموعهم ، كل يبكى على نفسه قبل أن يبكى على أرضه أو على عبد الناصر .

****

الثغـــرة :

بدأت سرقة الارض بحلول جماعة من الاعراب حطوا رحالهم عليها وشرعوا فى بناء ســور حول جزء كبير منها ، وكان أفراد أسرتى يغطون فى نوم عميق فى بيوتهم الأسمنتية التى لا تعرف الخضرة والنماء ، وتفزع العصافير من التحليق فوق أبراجها العالية ... كان ذلك فى حوالى الساعة العاشرة من مساء يوم ١٥ اكتوبر ١٩٧٣ حين تمكنت قوة صغيرة للعدو تتكون من سبع دبابات أن تصل متسللة الى غرب القناه باستغلال ملتقاها بالبحيرات المرة ، فاستهان بها أولو الامر ولم يبلغوا القيادة العامة بما حدث فى حينه ، بل ان السادات نفسه لم يعلم بها الا قبل ساعات قلائل من القائه خطاب النصر فى مجلس الشعب يوم ١٦ أكتوبر ... وقد تحولت الدبابات السبع فيما بعد إلى سبعمائة حتى وقع المحظور .

أما أعراب غرب الاسكندرية فهم صنف غريب من البشر تتركز سيماهم على عيونهم .

فى خلال ساعات سيطروا بسهولة على الارض بقيادة زعيمهم حسن الجاويط الذى استقر بخيمته فى مركزها . رأسه كالكرة تماما ، وعيناه ضيقتان منطفئتان تدوران حول بؤبؤيهما كما يدور جهاز رادار محموم باحثا عن هدفه .

كلما تذكرت الارض يامولاى فاضت فى خاطري دموع غزيرة .. دموع مشيعى عبد الناصر ، ودموع أهالى شهداء النكسة والعبور ، ودموعى حين ظلمت وقهرت فى عملى ، ودموعى حين بكيت لأول مرة فى حياتي بمقام السيدة نفيسة رضى الله عنها ، فأوقن انك ما خلقتني الا لكى أدافع عن الارض وأحميها ممن يفكر في

اغتصابها ، يهوديا كان أو مسلما أو حتى لادين له .

صـرخت أمـى :

- لا يمكن أن يكون حسن الجاويط .

- لمـاذا ؟

- لأنه السمســار الذى أتى الينــا بسـيد بسيونى منذ عدة أشهر لشراء الأرض .

- لقد باعنا له ، وهو الآن يحول الخيمة الى بناء من الطوب .

- الجبــان .

معلوماتى المكتسبة عن طباع الجنس البشرى ينحصر مجالها فى مصر ، فظروف حياتى لم تسمح لى بأسفار طويلة أو قصيرة أتعرف فيها - بمواجهة العيون - على طباع أجناس أخرى غير المصريين ، فبالعين قبل أية حاسة أخرى أستطيع بما سـخره لى الله من قدرة أن امسك بتلابيب الفكرة التى نشأت فى عقل من أنظر اليه ، وأعرف كيف تسللت اليه وأتوصل الى دوافعه فى اعتناقها والى دوافعها فى التسلط عليه ، خاصة لو كان فى الأمر - والعياذ بالله - شر ، فهذا تخصصى وتلك موهبتى وأحمد الله على ما منحنى وما منعنى ، فدائما ما أبرأ من حولى وقوتى الى حوله وقوته اتعاظا بتجربة [illegible] قارون من جهة وتطبيقا معاصرا لنظرية رأس الذئب الطائر من جهة أخرى .

أستطيع إذن - بلا تفاخر - أن أدعى أننى متخصص فى فهم النذالة بأصنافها كافة ، ودؤوب فى تعقب مصادرها منذ لحظة الكشف وحتى موقع المنشأ .

ولما كان الأمر كذلك فقد هالنى ما فعله حسن الجاويط ، وكان توصيفي المبدئى لفعلته هو مزيج من الخيانة والجبن والحقد وانعدام الشرف والكرامة ، وكأنه قد فتح لجانبى الرومانسى بابا للفحص والتأمل يدعو فى البداية الى التساؤل البديهى : " لماذا يفكر انسان فى اغتصاب حق انسان غيره ؟ " ... الأمر الذى يقود الى تكرار السؤال نفسه بعد توصيف المغتصِب بأنه يعيش من خير المغتصَب مبديا القناعة والرضا .. ويجر التساؤل وراءه ملايين من التساؤلات ..

أما باب الارتطام المادى بالواقع فقد جعلنى أصرخ متوعدا :

- سأمزقه إربا .

- اياك أن تقترب من هؤلاء البلطجية .

- ونتركهم يغتصبون أرضنا ؟

- بالقانون سنحصل على حقنا ونطردهم فى أسرع وقت بإذن الله .

- أشك فى ذلك .

وبذل كيسنجر جهداً خارقا لكى يعطل صدور قرار وقف اطلاق النار حتى يعطى الفرصة لاسرائيل أن تحتل السويس أو الاسماعيلية أو بور سعيد ، أو أن تقطع الطريق الى القاهـرة وتضعهـا تحـت تهـديد مدافعها ودباباتها . بل انه لم يخجل من ذكر سعادته باليهود - في مذاكراته المنشـورة - حـين نجحـوا فى الالتفاف حول قواتنا من خلال الثغرة .

وقلت لقائد وحدتى الجديد الذى نقل الينا بعد وقف اطلاق النار :

- اعطنـى فرصـة من الوقت حتى أسيطر على الموقف ثم أعود الى وحدتى

عــلى الفــور .

قــال فى رجـولة أسرتنى :

- أيكفيك خمسة أيام إجازة ؟

- بارك الله فيك يا فندم .

فى طريقى الى أرضى المهددة كنت على يقين من النصر ، فمن الطبيعى بعد أن أديت واجبى على أروع وجه أن يساندنى الجيش والبوليس والقضاء والشعب فى الحصول على حقى المغتصب .

آه من غرور عقلى وسذاجته يا مولاى . كم أعمتنى عنك غفلتى فاغفر لى ضعفى وقلة حيلتي . فكرت فى الأنواط والنياشين والتصفيق وكلمات الاعجاب وآيات الانبهار . فكرت فى دبابات العدو التى طارت فى الجو بصواريخ جنودى . فكرت فى زهوى وخيلائى وأنا استعرض صفوف الأسرى من الصهاينة وقد جمعهم جنودى مثلما يجمع فلاح ثمار حقله ..

كيف لم أفكر بك حينذاك ، كيف لم ترد الى خاطرى وأنت منقذى وحماى ؟

****

جنـــود ابليس :

قيل ان رجلا من بنى اسرائيل صام سبعين سنة يفطر فى كل سنة سبعة أيام ، فسـأل الله تعـالى أن يريه كيف يغوى الشيطان الناس .. فلما طال عليه ذلك ولم يجب قال :

لو اطلعت على خطيئتى وذنبى بينى وبين ربى لكان خيرا لى من هذا الأمر

الذى طلبته .. فأرسل الله اليه ملكا فقال له :

- ان كلامك هذا الذى تكلمت به أحب الى مما مضى من عبادتك ، وقد فتح الله بصرك فانظـر .

فنظر فإذا جنود ابليس قد أحاطت بالارض ، وإذا ليس أحد من الناس الا والشياطين حوله كالذئاب .

****

الأرض :

سألت دليلة وكانت فى ذلك اليوم أستاذة فى الجامعة تدرس بكلية العلوم :

- ما الأرض يا دليلة ؟

- الأرض يا حبيبى تراب يتكون من نفس العناصر التى تكون جسم الانسان .

- ومافائدة تملكها يا دكتورة ؟

انتظـرت أن تبرر لى ملكية الارض - كتبريرى - بتعميرها ، فتلك سنة الحياه ، لكنها شردت طويلا وقالت وكأنها تحدث نفسها :

- اننى دائما ما أتساءل ما الفائدة أن أمتلك عدة أمتار مربعة على سطح الكرة الأرضية ملكية موقوتة ، أمضى عمرى فى نزاع مع الغير للاحتفـاظ - الموقـوت - بها ، ثم أمـــوت تاركة اياها للمجهـول .. لماذا يتعاملون مع التـراب وكأنه شـرف وعرض ؟ اننى لم أستوعب يوما كيـف يقتل فلاح جاره لأن جاموسته وطئت أرضه ، أو كيف يغزو جيش دولة أرضا مجاورة يسكنها قوم آخرون ليقتطع منها جزءا لقومه .

قــلت لها :

- لكن هناك من يعمر الأرض ولا يمتلكها .

- هؤلاء من لا ملك لهم ولا جاه ولا كلمة تسمع ولا أمر لا يرد .

في تلك الليلة لم أشتهها ونام كل منا فى غرفة .

الأرض أرضك يا مولاى . أنزلتنى اليها بالحق وسوف تنتزعنى منها وتؤوينى فى ترابها ثم تبعثنى بالحق فاغفر لى تشبثى بها والقتال لأجلها .

تلك منحتـك .. هديتـك الغالية ، فكيف أبخسها حقها وأتهاون فى الحفاظ عليها ؟

انى أعاهدك أن أمنح ريعها لوجهك الكريم لو أعدتها لى ، وأن أسخر نصيبى فى خدمة أحبائك الفقراء ..

لقد خرجت من مجرى البول مرتين فأعوذ بك يا مولاى من نفخة الكبرياء ، وإن مت دونها فكم أتوق لأن أنضم الى ركب الشهداء .

ولما رجعت الى كتب العلوم عرفت أن الارض تتكون من اليابس والماء وأن اليابس يحتل ثلث مساحة الارض كلها ، وأن ثلث هذا اليابس إما شديد البرودة أو شديد الجفاف بحيث تتعذر فيه حياة الآدميين ابتداء من حسن الجاويط ومرورا بتولستوى وسلمان الجربوع والراقصة المشهورة سهير عبده وانتهاء بشخصى .

لم أفد كثيرا من علمى بأن المحيطات الكبرى تفصل بين القارات وأن هناك سلاسل ضخمة من الجبال العملاقة والصحارى الشاسعة تشكل هذا اليابس ، فيابسي ينحصر فى بقعتين فقط احداهما فى ميدان شهد قتالا ضاريا بينى وبين

جنس بشرى آخر على قطعة من اليابس والأخرى فى العامرية وتخص أسرتى . فى اليابس الأول استهنت بحياتى فداء لفكرة ، أما فى اليابس الثانى فكانت صدمة العمر .

****

الصــدمة

ما أن وصلت الى الاسكندرية حتى توجهت الى الميناء لأعبر عن عرفانى بجميل قائدى الجديد ، فأنهى له أوراق عربته بالجمارك حسبما طلب منى فى اللحظة الاخيرة لمغادرتى الموقع .

وقفت أرقب حركة السفن ، ونسمات الخريف الشجية تهفهف من حولى فتبعث فى النفس احساسا غامضا بنشوة الحرية ، وتثير فيها كوامن الوجد ولوعة فراق الأحبة ، فأتأمل حكمة الخالق فى تقلب الفصول والأحوال .

ابتسم الموظف ابتسامة لم أفهم مغزاها حين قال لى بهدوء :

- ثلاثة آلاف جنيـه .

- نعـــم ؟

- كما سمعت تماما .

- يقول صاحبها ان أوراقها تامـة .

- لكن رسومها غير مدفوعة .

سارعت الى التليفون مدفوعا بنواياى الحسنة . بصعـــوبة متناهية نجــح الاتصـــال ، جاءنى صوته مؤنبـا :

- كنت أظنك أذكى من هذا يا جدار .

- لست أفهم .

- ما دمت لم تفهم فعد فورا الي وحدتك .

- لكنى لم أذهب بعد الى أرضى .

- لو لم تعد فورا سأعتبرك غائبا عن الوحدة بدون إذن .

كان موقعى قبل وقف اطلاق النار عند الكيلو ١٠١ ، ومازال موقع أرضي بالعامرية عند الكيلو ٢٨ من الاسكندرية محتلا حتى الآن رغم ان اسرائيل عقدت اتفاقيات سلام مع الفلسطينيين والسوريين والاردنيين واللبنانيين . حررت موقعى الأول عام ١٩٧٣ أما موقعى الثانى فتحتله الآن عربات نقل وبلدوزرات سيد بسيونى وجراراته الزراعية التى أصبح من أشهر تجارها بعد أن نفض يده عن تجارة ملابس المحجبات وتركها لواحد من أقاربه ...... وكانت جولدا مائيـر قد استعرضت عضلاتها الأنثوية فى الزيتية وتحدثت الى صحفيي العالم من غرب القناة ومن خلف القوات المصرية ، وقال السادات ساخراً إنها مسرحية هزلية وإن الثغرة يمكن أن تصفى خلال ساعات .

وقلت لنفسى بعد أن أنذرنى قائدى اننى لن أعود الى وحدتى قبل تحرير أرضى ، إذ تبين لى أننى حين كنت أعرض صدرى لرصاص الأعداء فى اليابس الأول ، كان ظهرى فى اليابس الثانى عرضة للطعن بخنجر مسموم تمسك به يد مصرية تأكل من طعام الأرض التى أقاتل لأستردها ، وكان لقائى الأول على غير موعد بالجور والعبث ... أحمدك يا مولاى أن العدوان على أرض العامرية لم يبدأ الا عندما أوشكت المعارك الحربية على الانتهاء ، والا لما استطعت بأى حال أن

أخوض بروح المحبة فيما خضت من أهوال فأنا أكره الجبن والنفاق ولا يمكننى أن أنتمى لوطن لا ينتمى اليّ هو الآخر بنفس القدر من الولاء .

لم أكن أتصور أننى أموت فى كل لحظة لكى أحمى عرض رجل من دينى ووطنى يسرق أرضى ولا يسأله أحد ماذا تفعل بالرجل الذى يحميك ؟ ... لهذا حسبت أننى سوف أنجح خلال أيام قلائل فى إقصاء حسن الجاويط وعصابته من الأرض بكل الوسائل الممكنة ، وحسبت أيضا أن أيادى العون سوف تتنافس على مساندتى ومؤازرتى .

لكنى لم أحسب أبدا أن هذا لن يحدث حتى بعد مرور عشرين عاما على تلك الواقعة .

ولم أكن أتصور يا مولاى أن يبتزنى قائدى بعد أن سكت صوت المدافع ووارى التراب عشرات الأجساد الطاهرة من إخوانى المقاتلين بلا تفرقة .. أين هذا القزم من قائدى العملاق العقيد نشأت ؟

كان جرحى عميقا ، فالضابط المحترم - منذ رآنى أقيم ولائم الافطار فى رمضان لجنود الكتيبة على نفقتى - أدرك أن أسرتى ميسورة الحال وأن الالاف الثلاثة لن تؤثر علي فى قليل أو كثير . ليته طلبها منى فى مواجهة شجاعة أو ادعى أنه يقترضها وأضمر فى نفسه ألا يردها . ليته فعل أي شئ إلا أن يستهين بكرامتى مثلما فعل سيد بسيونى الغيور على النساء المسلمات والذى باع له كائن اسمه حسن الجاويط أرض أسرتى بتراب الفلوس .

ولشدة انهماكى فى التفكير وغوصى بتركيز عميق الى أغوار فكرة الاغتصاب سواء من جانب الجاويط كأداة أو من جانب البسيونى كقوة ، خيل الى

أن للشر فائدة ، فلو لم يكن الأمر كذلك لما أوجدته يا مولاى .. عجيبة !

ربما كانت هناك فائدة للشر كالسعى الى الخير ، وربما كانت هناك فائدة للباطل كالبحث عن الحق ... ولكن لماذا جعلت من أرضى ميدانا للاختبار وأرضك واسعة وكونك عظيم ؟ .. قد تكون رسالة من جلالتك علىّ أن أفك شفراتها وأمتثل لمضمونها ، أما فيما يخص الأطراف الاخرى فمن المؤكد أن للاغتصاب لذة لا تقاوم وشهوة لا تدانيها شهوة فهم ينظرون الى الحياة كوليمة دسمة جاءت مثلما سترفع فجأة وعلى غير انتظار ، وأكثر الفائزين بها - عندهم - هم أولئك العاشقون للاغتصاب والقادرون عليه .

****

الجاهليـــة

ارتدت دليلة مريلة بيضاء ناصعة ووضعت على رأسها شريطا أحمر . كانت فى ذلك اليوم خادمة . قلت لها متسائلا :

- هل تعلمين ماذا فعل سمسار الصهاينة بأرضنا ؟

أجابت فى ميوعة مستترة أثارت فى الرغبة .

- أنا لا أفهم يا سيدى فى السياسة .

ذكرتنـى بأبـى الراحل فجميع أفراد أسـرتى لـم تكن تنـاديه الا بهـذا اللقب : " ســــــيدى " .

- فيم تفهمين اذن ؟

- أفهم معنى كيسنجر إن كان هو السمسار الذى تقصده .

نسيت أنها خادمة وقالت إن الاسم يعنى فى ترجمته (البواس) .

قلت لها مدعيا الغضب :

- اخلعى المريلة يا بنت الكلب

- لماذا يا حبيبى ؟

- لأن الخادمة لا تعرف الانجليزية .

وانفجرنا فى الضحــك ...

فى تلك الليلة أتقنت الملعونة تقمص شخصية الخادمة بروحها ولفظها وسلوكها . لقد هداها ذكاؤها إلى شخصية خادمة غير مبتذلة لكنها شديدة الخبث والدهاء . تخفى أنوثتها عن سيدها ثم تظهرها . تبدى ذكاءها ثم تخفيه . تكشف عن خوفها من العار وتستر جرأتها واندفاعها وراء هدفها الخفى لاقتناص الفريسة الثمينة .

ما أتعسنى يا مولاى حين كنت يائسا من رحمتك ... وما أخجلنى أمامك الآن وأنا أسرد فضائح سترتها بكرمك عن العباد ولم تفضحنى فى جاهليتى . أضاء لى الشيطان طريق الغفلة بناره التى لم تلبث أن خبت جذوتها فتركنى ضالا أتخبط فى ظلام الجهل ، وعميت عن طريق الحق المضاء بنورك القدسى الأزلــى الأبدى الذى لا نهاية له . ان ذريعتى التى أرفعها فى خضوع أمام جلالتك هى المثل أضربه لغيرى من الناس حتى لا يقنطوا من رحمتك ولك المثل الأعلى . أنا نفسى لم أكن أتصور أننى سوف أهتدى يوما الى نورك ، فاسمح لي أن أكون جنديا من جنودك يحمل مشعلا يضئ طريق الهدى الى عبادك المساكين الذين أعمتهم الغفلة عن الحق . ان أحدا منهم لم يكن يعلم حينئذ أن كيسنجر قد بعث من موسكو فى صباح

الثانى والعشرين من أكتوبر ١٩٧٣ برسالة رقيقة الى جولدا مائير يقول فيها :

" سيدتى رئيسة الوزراء .. اننا نعتقد أن انجازا كبيراً قد تحقق لكم ولنا ، وهو انجاز يؤيد الشجاعة القتالية لقواتكم ويصون منجزاتها ، فقد توصلت الى مشروع قرار لوقف اطلاق النار مع القيادة السوفيتية . ذلك القرار يترك قواتكم فى المواقع التى وصلت اليها غرب القناه ، كما لا يحوى أية اشارة من أى نوع الى كلمة الانسحاب "

****

الشـــــرطة

قال لى مأمــور القســم :

– ستقوم لجنة بمعاينة الأرض غدا .

ولنا بالأرض فيلا مهجورة منذ عشرات السنين تؤكد بالمستندات أسبقية حيازتنا للأرض . لم يقترب الجاويط منها وإنما شرع فى الالتفاف من حولها بسوره الفاجر وذكائه الشيطانى .

سألت الضابط فى دهشة :

– ولماذا لا تتم المعاينة على الفور ؟

أجــاب فى اقتضــاب وغــرور :

– هذا عملنا ونحن أدرى به .

ما أن انتهى حسن من بناء السور – فى أربعة أيام – حتى أرسل الضابط لجنة المعاينة ، فأثبتت وجود حسن الجاويط ورجاله فى المنطقة المسورة بوضع اليد . كان

من الضرورى فى مثل هذا الموقف أن تتحول المشكلة الى النيابة بعد أن أصبح السمسار طرفا ينازعنا فى الملكية .. أما البواس فلم يعلن قرار وقف اطلاق النار الا بعد أن تمكن الجيش الاسرائيلى من إحكام خطة الثغرة وما ترتب عليها من تدمير لصواريخ الدفاع الجوى المصرى ووقوع خلاف بين قادتنا حول كيفية القضاء عليها ثم انفراد السادات بقرار قبول وقف اطلاق النار دون استشارة شريكه السورى .. وأما أفراد أسرتى فانهم متفرقون فى مدن عديدة بحكم طبائع أعمالهم وان كانت قلوبهم المتحابة تلتقى في المناسبات بمنزل الأم التى حملت على كاهلها وحدها عبء أراضى العامرية وعزبة كوم حمادة وبعض العقارات المتناثرة هنا وهناك .

كيسنجر يهودى ويحاربنا بحقده الأسود الملتهب فيدعم اسرائيل بجسر جوى لا يهدأ .. هذا شئ مفهوم . أما أنت يا حسن يا جاويط فمصرى مسلم مثلي تماما ، وأنت يا سيد يا بسيونى يا حامى حمى الاسلام .. وأنت يا قائد وحدتي .. وأنت يا ضابط البوليس ، فهل لأحدكم من ماله الا ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى أو تصدق فأمضي ؟ .. ما أحقره من تحالف وما أحقركم من حلفاء . لو لم أكن على جاهليتي يومئذ لحذرتكم فى حينه بأنه ما أعز الدرهم أحد الا أذله الله ، وأنه لا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ، ويتوب الله على من تاب ، وأنكم إن تنعمتم فى البطن فالحمار أكثر أكلا منكم ، وإن تنعمتم فى الوقاع فالخنزير أعلى رتبة منكم .

مكنتنى النيابة - على الأوراق - من أرضى بالقوة الجبرية ، وحكمت بهدم سور اللصوص وكان من الطبيعى حسب تصورى أن تنفض المسألة خلال أيام .

****

حين بدأت أفكر فى العودة الى وحدتى صورت لى مخيلتى فجأة ذلك التشابه الغريب فى ملامح الوجوه بين السماسرة الثلاثة كيسنجر البواس وحسن الجاويط وقائدى الجديد .. تعجبت للأنوف الثلاثة المدببة المرتفعة على الوجه فوق حد الاعتدال ، والشفاه الدقيقة الحادة القاسية ، والعيون التى لا تعرف السكينة فتدور حول نفسها بسرعة البرق .. حتى تحركات الأجساد متشابهة في خطواتها وميلها واندفاعها واعتدالها ، فسبحانك يا مولاى فيما خلقت .

قال لى القائد :

- استعد للمحاكمة .

- هل أنت واثق أنك تتكلم بجدية ؟

- ستعرف بعد قليل .

لم أدعه لقليل أو كثير ، اذ أغلقت باب حجرته من خلفى وزأرت فى وجهه

- أنت انسان حقير .

- هل جننت يا جدار ؟ تسب قائدك .. وفى مكتبه ؟

اقتربت منه مهددا دون النية لتجاوز مرحلة الحوار ، لكنه فزع من اقترابى بشدة ، حتى أنه قفز من مكتبه فتعثرت قدمه وسقط على الأرض بعد أن ارتطمت رأسه بحافة المكتب فاندفعت الدماء من رأسه كالنافورة .

سارعت بفتح الباب ، بينما اندفع مهرولا الى الخارج مرددا في تخاذل :

- أتضربنى في مكتبى يا جدار ؟

أمام هذه الخسة وقفت حائراً ... ما أسرع أن تمضى الذكريات الحلوة وكأنها السراب رغم ما تفوح به ذكراها من عبق المحبة والشهامة وفرحة الرجال بانصهارهم جميعاً فى بوتقة القتال .

كان يوم ٢٢ أكتوبر يوما حزينا عند جميع أفراد الكتيبة وأنا على رأسهم . وقفنا صفوفا نودع العقيد نشأت الذى كان عليه أن يتوجه الى وحدة أخرى ويرحل عنا وقد سرق فى خطوته قلوبنا وفى بسمته أعظم أيام عمرنا .

قلت للقائد الذي لم يكن يعرف عن القيادة غير اسمها :

- لا يليق بكرامتك وعسكريتك أن يظن الجنود أن ضابطا صغيراً يعمل تحت قيادتك قد شج رأسك . سارع بالدخول الى مكتبك لنتفاهم ، وثق ان مسألة الثلاثة آلاف جنيه لن يعلمها أحد سوانا .

أدرك بسوء ظنه ان مساومتى تحمل فى طياتها تهديدا بفضح سره فانصاع لرأيى فى جبن وتخاذل ، لكنه كان خائفا أن أضربه . قلت له اننى ساؤكد للجميع حقيقة ما حدث وهو أنك انزلقت بالمصادفة فجرحت . قال كطفل غبى عنيد :

- وهل تعتقد أنهم سيصدقون ؟

- أنا كفيل بذلك .

- اسمع يا جدار . هذه الكتيبة لن تسعنا معا .

- والحـــــــل ؟

– اطلب اجازة كلما شئت . المهم أن تبعد عنى .

ومن العجيب أن الجنود لم يصدقوا .. بل ظلوا يتهامسون فيما بينهم قائلين بسعادة :

– الجدار ضرب القائد .

****

التكـــريم

كانت دليلة تعمل بالصحافة يومذاك . وضعت نظارة قراءة على أنفها الدقيق وراحت تقرأ لى أخبار تكريم الفنانين والفنانات فى حفل يحضره رئيس الجمهورية ، حيث يصافحهم فردا فردا ويسلمهم الأوسمة والنياشين والمكافآت المالية . وتسألنى بنبرة حيادية مثيرة :

– ومتى يقيمون حفلات تكريم مماثلة لضباط وجنود أكتوبر ؟

فأطلب منها أن تكف عن القراءة والحديث فى هذا الموضوع الاستفزازى ، لكنها تصر على اثارتى فتقرأ لى خبرا عن قرار رئيس الوزراء بسفر الفنانة نادية فهمى الى لندن للعلاج على نفقة الدولة . أنتفض كمن لدغه عقرب وأضع يدى على أنفى وفمى خشية صدور صوت قبيح ، فهذه الفنانة دعتنى يوما الى فيلتها باحدى ضواحى القاهرة بعد أن تعارفنا فى حفل راق . فى تلك الليلة تنافسنا فى سباق جنونى يثبت فيه كل منا للآخر أنه لن يكون البادئ بالترنح والسقوط مهما أفرط فى الشراب . والحق أننا تعـادلنا فى المسابقة حتى أن أحدنا لم يتعرف على جسد الاخر الا فى ظهر اليوم التالى .

.. اغفر لى يا مولاى انفلاتى القديم عن معيتك .

وجدت أن هناك اتساقا مذهلا بين منطق تكريم ناديه فهمى بارسالها للعلاج فى الخارج على نفقة الدولة ومنطق الصحافى الكبير الذى صرح فى احتفالات اكتوبر ١٩٩٤ بأن الرئيس مبارك هو القائد الذى ظلت مصر تنتظره لمدة ست سنوات ما بين نكسة يونيو ١٩٦٧ وانتصار أكتوبر العظيم عام ١٩٧٣ ، وأن مصر ظلت طوال هذه السنوات الكئيبة تترقب فى كل يوم ظهور القائد وتتطلع الى البطل الذى يطلق شرارة العبور ويفتح آفاق النصر ويمحو الهزيمة ... أما أن هناك كائناً بشريا اسمه أنور السادات قد كان يوما على قيد الحياة حين اتخذ قرار العبور وكان قائده الحقيقى فذلك أمر لا يتسق مع المنطقين السابقين ، وبالتالى يجوز نسيانه أو تناسيه والله أعلم ، وأما أن هناك رجالاً آخرين قد ولدتهم أمهاتهم يوما كالمشير أحمد اسماعيل والفريق سعد الشاذلى والمشير عبد الغنى الجمسى والمشير محمد على فهمى واللواء نبيل شكرى وغيرهم فذلك أمر ليس بذى بال والإ ضاع المنطق وأصبح من السفاهة أن تصرف ملايين الجنيهات على الاحتفالات الباذخة التى يتبارى فيها المطربون والمطربات والراقصون والراقصات فى الاشاده بمآثر الرئيس بنفس درجة الاتقان التى اشادوا فيها من قبل بالسادات وعبد الناصر .. فمن ذا الذى يلوم حور محب حين محا اسم توت عنخ آمون من النقوش التى كتبت فى عهده وفقأ عينيه على جدران المعابد وقطع رؤوس تماثيله حتى يبعث بلا رقبة ؟ ... ومن ذا الذى يلوم هواة الاغتصاب والنصب على استباحة أرضى ودمى ؟

صاحت دليلة تفيقنى من شرودى :

- ماذا دهاك ؟ .. هل هى قريبتك ؟

قلت لها متجاهلا لهفتها :

- لماذا لا نلعب اليوم دور المثقفين ؟

- أنا جاهزة ، ولكن كيف تريد أن نلعبه ؟

أحضرت غليونا ونظارة قراءة ذات سلسلة فضية ومجموعة من الكتب وجلست أمامها مهموما مغموما مكدرا أدخن بشراهة ، فسألتنى :

- ما الذى يشغلك ؟

قلت متصنعا الوقار الشـديد :

- إن مطالعة النفس الناطقة فى ذاتها الروحانية تنعكس على عذابات الوجود الانسانى المتشوق الى بهاليل السبهللة في طواجن الكوارع المسبكة بالثوم والصلصة .. سليم ؟

قالت ببرود تام وبلا أدنى انفعال :

- لا شك فى هذا يا صديقى .

- ولكن الكارثة الحقيقة تكمن فى أن كثيرا من الناس سفلة وطماعون وكذابون ومنافقون ويأكلون مال النبى فى لمح البصر على الموائد كافة .... سليم ؟

- بصراحة .. أنا لا أفهم هذا الكلام .

- فكيف فهمت ما قبله يا بنت الأبالسة ؟

****

فى العشرين من عمره رأى فى المنام نورا ساطعا مبهراً بينما كان يقف عند مفترق طرق عديدة . اتجه من فوره الى النور وسأله :

– أأنت من ضللتك الغيامة .. أأنت من سلمت عليك الغزالة ؟

فتراجع وجه النور باسما وقد أوما بالتأييد . قال له بفرحة غامرة :

– إذن فأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حينئذ أشار النور لأبى الى طريق معين ليسير فيه من دون الطرق الأخرى . وما أن خطا به خطواته الأولى حتى نزلت من السماء مراكب على الترعة التى راحت تفيض بمائها على الطرق الأخرى فغمرتها ولم يبق الا الطريق المستقيم الحاد الذى يسير فيه . ويوم أن لقى ربه مالت تكعيبة العنب وسقطت ثمار التين الشوكى عن أشجارها دون أن يلمسها أحد .

****

كثيرا ما أقول لنفسى أننى أستحق ما أنا فيه من كرب وابتلاء وشعور بالظلم والذنب والندم .. فقد جاءنى الهاتف ثلاث مرات ، واستمعت اليه جيدا وانتبهت الى تحذيره بكل ما وهبنى الله من حواس .

جاء فى المرة الاولى حين تكلمت الى الله بعد أن كتب لى عمرا جديدا وطلقات الرصاص تئز حول وجهي وصدرى وتحت قدمى دون أن تلمسنى .

وعاهدتك يا مولاى أن أجئ اليك ... ولكنى نسيت .

ثم جاءنى فى المرة الثانية حين نجوت من ابتلاء الأعرابية الفاتنة التى راودتنى عن نفسى ، وفى أيام رمضان المباركة وعلى الأراضى الطاهرة المقدسة .

وعاهدتك يا مولاى على أن أجئ إليك ... ولكنى نسيت .

ثم جاءنى فى المرة الثالثة حين عدت من زيارتى لأهل البيت وجلست وحدي متأملا في ذهول ما أظهرته لى من كرامات .

فى هذه المرة خطوت اليك بل عدوت بأقصى ما استطعت من سرعة .. وفتحت لى أبوابك فعشت في نعيم .. نعيم أبكيه اليوم حرقة وألما على ضياعه لأنى استسهلته فلم أقدره حق قدره ولم أدرك أنه الابتلاء العظيم ، فانخرطت فى دنيا يحكمها قضاة وشرطة وموظفون وسماسرة ... فنسيت مرة ثالثة يا مولاى .

أستحلفك بحبيبك محمد أن تعيد لى يوما واحدا من أيام النعيم .. أيام العزلة والصفاء والاستغناء والدرجات العلى ونفحات النور ونشوة الوصل .

- أعدنى إلى عصمتك وسوف أكون انسانة أخـرى .

- كنت أتمنى يا ســمية .

- أعدك بالطاعة العمياء والكف عن الغـــيرة المجنونة .

- ليتنى أستطيع . لقد خرج الأمر من يدى .

- ألا تعطنى ولو فرصـة واحدة لأجـل ابنتنـا رواية ؟

وأبتسم فى ثقـــة العارف دون غرور ولا أقول لها شيئا لأنها لن تفهم .. إنى أعاود الســير اليك يامولاى . أحاول جهد طاقتى أن أكتسح فى طريقي كل مسرة تشـــغلنى عن ذكــرك .. أنفض حتى عن يدى ما قد يعلق بهما من أمل قصير الأجل .

اننى ما هجرت النساء إلا حبا فيك .. وما تركت الجيش الا التجاء اليك .. وما نذرت نفسى للجهاد من أجل الأرض إلا ارضاء لك .. فامنن على ، بنعمة الذكر وارحمنى يا مولاى من آفة النسيان .

*****

عدت الى أرضى لأواجه العدوان الجديد . من لا يملك أعطى من لا يستحق . تاجروا فى أرضى بالباطل . وزعوا الأوراق فيما بينهم من يد الى يد ومن عام الى عام حتى انتهت الى حسن الجاويط وسيد بسيونى وسلمان الجربوع وراتب أبو عزّام .. وأسماء أخرى للملكيات صغيرة وهمية تجدد نفسها بتجدد صدور الاحكام لصالحى يريدون أن يشتتوا دمى بينهم وبين الحكومة .

أكاد أرى لعابهم يسيل أمامى كالكلاب المسعورة وهم فى ذروة النشوة بالسرقة والاعتداء على ما للغير .

سبحانك لك فى خلقك شئون ، وأنت تعلم وأنا لا أعلم ، فما أوتيت من علمك الا أقل القليل . إنى أتأمل وجوه هؤلاء القوم فألحظ فى عيونهم قلقا وزيغا وارتعاشا لا يهدأ أبدا .

لماذا لا يطمئنـون ؟ .. ما لهم يسعدون فى شبق جنونى بالاحتيال والغش والخديعة ؟ .. إنى أعلم يا مولاى أنك تحب في عبادك التأمل والتفكير ، فاغفر لى جرأتى حين يدركنى العجب من حكمتك فى خلقك لهؤلاء الناس أكثر مما يدركنى من حكمتك فى خلق الأفاعى والثعالب والعقارب .

وكان لابد أن أواجه حسن الجاويط رغم تحذير أمى .. أريد أن أتفرس فى معالم وجه هذا الخائن لأدرس علامات الخسة والوضاعة على خطوط جبينه وتجاعيد وجهه .. ذلك البنى آدم الذى كان يهرول مسرعا نحو أبى حين يزور الارض ، ليحمل حقائبه ويفتح أبواب الفيلا ويعد له مجلسه .

حين ألغي عبد الناصر الألقاب فوجئ أبى بحسن يقول له متشفيا :

- خلاص .. بقينا واحدا يا جدار .

صعق أبى لصفاقته في رفع الكلفة وقلة الحياء ونكران الجميل ، لكنه تمالك نفسه وسأله بحكمة :

- كيف يا حسـن ؟

- ألم تسمع أنه لم تعد هناك ألقـاب ؟

- بل سمعت يا حسن ، ولكنى لم أقصر معك فى شئ ، وأعتقد أنك كنت ومازلت سعيداً بعملك عندى بغض النظر عن الألقاب ؟

- الوضع أصبح الآن مختلفا .

وضـع أبـى يده فى جيبه وأخرج ورقة من فئة العشرة جنيهات ومد بها يـده إليه قـائلا :

- خذ هذه يا حسن للأولاد .. أنت رجل طيب .

اندفع الى يده يقبلها قائلا فى عفوية العبد :

- ربنا يخليك لنا يا سعادة الباشا .

.... أريد أن أتغلغل ببصيرتى فى تلافيف قلبه لأدرك كم سواده وغلظته وظلمتـه . لابد أن أواجهه رغم تحذير أمى .

- لم فعلت هذا يا حسـن ؟

حين يكون المال هو أم الشهوات المتسلطة على كيان آدمى ، فملامح وجهه فى

أى مكان على كوكب الارض لن تختلف فى شئ عن ملامح وجه حسن الجاويط .. تلك الملامح الطافحة بالجوع والنهم والبؤس والطمع والعذاب والقلق ، حتى ولو ضحك صاحبها وقهقه عاليا . انها ملامح تخلو تماما من اشعاعات الرضا وعلامات السكينة .

كان يرمقنى فى ارتباك وأنا أقرأ ملامحه وأنتظر اجابته . ربما فكر فى تلك اللحظة أننى أنوى به شرا . ربما كان خائفا منى . ربما كان مطمئنا لاستناده إلى السلطة والثروة ممثلتين فى سيده اللص سيد بسيونى ، ربما تعرض - والله أعلم - لاختلاجة ضمير أثارت فيه شعورا لحظيا بالخسة والانحطاط .. أو ربما لم يرد شئ من هذا كله على خاطره بالمرة . عاودت سؤاله حين طال صمته :

- أجبنى يا حسن .. هل هذا جزاؤنا ؟

قال مخفياً ارتجافه :

- أنا ليس لى شأن . اسأل سيد بسيونى .

لقد أذهلنى أن يجمع أفراد الاسرة فى حسن نية أزعجتنى ونبالة اندثر عصرها على ألا نتعرض لأحد من المعتدين الا من خلال القانون ، ومن هذا المنطلق فوضونى رسمياً بصفتى الابن الاكبر فى تولى أمر استعادة الارض يوم تركت الخدمة العسكرية مباشرة .. رغم ذلك فقد اكتسحتنى رغبة فى الانتقام عاتية تطيح بحسن فى لمح البصر جزاء على خيانته ، لولا أن تجاوزتها بمشيئتك ورحمتك الى شعور بالاشمئزاز والتقزز ، بحيث لم أستطع الا أن أقول له من بين ضروسى :

- منك لله يا حسن .

ارتسمت على وجهه علامات الفرحة بالنجاة دون أن تتلاشى دهشته ، اذ تصور أننى أضعف مما كان يعرف وينتظر ، وكأن وقوف جسدى أمامه كان أكثر ارهابا له من توكيلى اياك كى تحاسبه ، وكأن انصرافى عنه دون إيذاء قد أزاح عن كاهله ثقل الدنيا بما عليها .

لم يكن أمامى الا أن أسلح نفسى بأقوى ما فى الارادة الانسانية من سمو وارتقاء حتى أستطيع التجاوز أيضا عن مشاعرى تجاهه بالاشمئزاز والتقزز ، فلما نجحت بفضلك لم أجده أمامى ، وانما وجدت نفسى حرا فى الأعالى بعيداً عن حقده وحسده واعتراضه الباطن والظاهر على مشيئتك .. ويا أيها الجهل قاتلك الله .

****

النـــاس المهمـــون

حين وصل كيسنجر الى مطار اللد محاطة طائرته بطائرات الأسطول السادس الأمريكى لضمان حمايته ، كان يشعر أن مصير العالم بيده وحده ، وأنه أهم رجل فى الدنيا ، ورغم ذلك فأنا واثق أنه لم يفكر لحظة واحدة فى أن دملا صغيرا يمكن أن ينمو فجأة فى منتصف مؤخرته ثم يقضى على حياته فى لمح البصر ، مهما بلغ عدد الطائرات المحيطة بطائرته .

حسن أيها القوم .. انكم جميعاً مهمون جدا . مهمون لدرجة انعدام أهمية الآخرين وانعدام حقهم فى مشاركتكم الحياة والأرض والهواء والشمس والقمر .. لكن ، وماذا بعد .. هذا هو التساؤل :

- وماذا بعد يا سيادة المأمور ؟

أجاب ببرود حاول أن يخفى ما تمكر به عيناه .

- لست أعرف .

- أنت مطالب بتمكيننا الفورى من الأرض بالقوة الجبرية .

قال من علٍ :

- عندى لك نصيحة لو استمعت اليها لاسترحت وأرحت .

المأمور أسنانه صفراء دليل على قذارة قلبه . همس لى بابتسامة كالحة كدت أتقيأ لرؤيتها :

- الرجل بيده حل المشكلة من جذورها .

- أى رجل ؟ .. وزير العدل أم وزير الداخلية ؟

- سيد بسيونى .

- كيـــف ؟

- نجتمع ثلاثتنا فى المساء .

- أيــــن ؟

- فى المكان الذى تختاره . عندك . عنده . عندى .

رأيت أوراق النقد العفنة وهى تتساقط محترقة من فمه وأنفه وعينيه . فى نظرته بكاء على الحياة وهو حى يرزق ، فكيف به لحظة الغرغرة ؟

ارحمنى يا مولاى من هـؤلاء الناس ...

انى أحاول الاهتداء بقدرتك اليك بعد طول ضلال وأنا أعرف أنك تؤدبنى وتعاقبنى فى دنياى لأنك تحبنى ، فلطالما تركت بيتى خربا وانشغلت بتزيين الطريق اليه .

****

معركة أم كتـاف

نعم أنت تحبنى يا مولاى .. فقد كانت طلقات الرصاص وشظايا القنابل تئز من حولى . تكاد تلامس أذنى وشعر رأسى وأنا أجرى للاحتماء بالملجأ ، لكن واحدة منها لم تصبنى ، وحين رآنى العقيد نشأت أمامه بلحمى وشحمى ألجمته الفرحة فسقط مغشيا عليه ، ولما أفاق راح يقبلنى ويبكى ، وقبل أن يبادلنى الحديث بكلمة واحدة قام يصلى شكراً لك .

كان اليهود قد احتلوا قاعدتين مصريتين بموقع حساس فى غمرة الارتباك الذى أحدثته الثغرة ، احداهما حقيقية والاخرى هيكلية حاكمة تقع على تل مرتفع على مقربة من جبل اسمه ام كتاف ، وكانت تلك القاعدة تهدد لواء مصريا كاملا يقع فى مدى أبعد بقليل من مدى نيرانهم ، بحيث يمكنهم تدميره لو واتتهم الفرصة للقيام بهجوم مفاجئ .

فى كل يوم ما أن تغرب الشمس حتى تتسلل القوات الاسرائيلية من القاعدة الحاكمة الى القاعـدة الحقيقيـة هربا من قتـال الليل معنا ، وتفاديا لاشتراك الطيران فى أى معركة محتمـلة .. ومع أول ضوء تعود إلى القاعدة الحاكمة عبر مدق يعرف بالمدق ١٣ .

قال لى العقيد نشأت :

– أنا لا أثق فى مخلوق يمكننى تكليفه بهذه المهمة سواك . انى أحملك مسئولية تأمين اللواء ووقايته من أى هجوم مضاد ، فهل تستطيع احتلال القاعدة الحاكمـة ؟

نعم .. أنت تحبنى يا مولاى ..

حين وصـل الاسرائيليون الى منتصف المدق ١٣ أثناء عودتهم الى القاعدة الحقيقية ، أطلقت نيرانى عليهم فجأة وبتركيز عنيف أحدث ارتباكا شديداً بين صفوفهم فكانوا أمام خيارين لا ثالث لهما ، فإما أن يعودوا بسرعة إلى القاعدة الحاكمة ليتمكنوا من تدميرى وهذا يعرضهم إلى خسائر فادحة فى معداتهم وأوراحهم فى طريق العودة المرتبكة ، وإما أن يواصلوا الفرار بأقصى ما يستطيعون من سرعة إلى القاعدة الحقيقية ، وهذا ما فعلوه .. وفى زمن قياسى تمكنت قواتى من احتلال القاعدة الحاكمة ورفع علم مصر عليها .

.... وكانت الساعات القليلة الفاصلة بين توقيت احتلالى للقاعدة وبزوغ أول ضوء فى الفجر ، كافية لمعرفتك يا مولاى .

– إلحق يا فندم .. قول دبابات قادم الينا علي المدق .

على مطلع المدق تبتان مرتفعتان ، لو تمكن العدو من الوصول اليهما لاستطاع تدمير قوتنا من كل الاتجاهات الممكنة . اصطحبت تسعة أفراد فى ناقلة جنود مســلحين بالصـواريخ المضادة للدبابات ، مندفعا بأقصى سرعة لامتطاء احدى التبتين .

فوجئت فى طريقى بعربة استطلاع نصف جنزير يقف عليها قادة القول الاسرائيلى على بعد لا يزيد عن خمسين مترا وقد برزت من خلف منعطف رملى ،

ومثلما فوجئت بهم فوجئوا بى هم أيضا ، لكن رشاشات مركبتى جعلت جثثهم تتناثر بشكل مفزع ومروع ، مما اضطر سائقهم الى التراجع فسقطت العربة فى الجرف أسفل التبة وانفجرت بمن فيها واشتعلت بالنيران حتى تفحمت . وكانت أولى دبابات القول الاسرائيلى تقترب من مدخل المدق حين سمع طاقمها الانفجار ورأوه بأعينهم ففروا تاركين دبابتهم التى تلقت أول صاروخ مضاد جعلها تقفز فوق الأرض - رغم ثقلها الشديد - بما يقرب من المتر وهى مشتعلة فسدت الطريق أمام بقية القول .

انهال الجنود بصواريخهم على الدبابة الثانية فالثالثة فالرابعة ، وكان صياحهم وصراخهم وتهليلهم وتكبيرهم يجلجل فى الفضاء .

جمعنا بعض الأسرى ولاذ بقية القول بالفرار وهو يطلق علينا نيرانا طائشة . أمرت سائق المركبة بالعودة فورا إلى التبة لإمكان السيطرة على الموقع ومتابعة القتال قبل أن يعاود العدو هجومه ، ولكنى فوجئت بأسنانه تصطك بشدة وقد أصيب بهلع التدمير الشديد ، فأصبح عاجزا عن الاستجابة تماما ويداه متصلبتان على مقود العربة .

أصدرت أوامرى لبقية الجنود بالوصول الى التبة جريا على الاقدام بأقصي سرعة ممكنة ، على أن ألحق بهم بعد استخلاص السائق المتشنج من العربة . قوبلت بعاصفة من المعارضة لتعريض نفسى للموت ، حسمتها على الفور بأمر قاطع .

حين تجاوزت ثلثى الطريق الى التبة حاملا الجندى على ظهرى تارة ودافعا اياه أمامى تارة أخرى انهالت علينا الرشاشات من كل جانب ، فألقيت به وبنفسى الى الأرض ، وظللنا بين ركض وزحف وجرى حتى وصلنا بكرم الله الى التبة .. ولم

يكن أحـدنا يفكر فى تلك اللحظات الرهيبة أن أيام الدهر ثلاثة : يوم مضى لا يعود ، ويوم نحياه لا يدوم ، ويوم لا يدرى أحدنا ما حاله ومن أهله .

انتهت المعركة بأسر بعض أفراد العدو وتدمير دباباته وعرباته المجنزرة وعـــرباته حاملة الافراد ، وكانت خسائرهم في الأرواح كبيرة باعتراف قيادتهم .

أيقن العقيد نشأت أننى فى عداد الشهداء نظراً لكثافة النيران التى أطلقت على والتى كان يتابعها من موقع القيادة على الجبل ، حتى أنه فقد الفرحة بانتصار قواته واحتلال القاعدة وتأمين حماية اللواء وجلس يبكينى بحرقة الى أن فوجئ بى واقفاً أمامه بلحمى وشحمى .

*****

شـــــيرين

نعم يا مولاى .. أنت تحبنى ...

فلولا حبك لى ، لما أنقذتنى من حبائل شيرين ..

بالمعروف افترقت عن سمية لأنها أرادت أن تحبنى طبقا لمواصفات قياسية من ابتكارها ، وأنا حين أحب انسانا أسلمه قلبى وأحبه على ما هو عليه من صفات حميدة وغير حميدة ، وأنتظر منه أن يحبنى هو الاخر كما أنا وليس كما يريدنى أن أكون .

وقلت أكمل نصف دينى فقدمنى علية القوم الى شيرين .. ومثلما كنت سخيا فى جاهليتى الأولى كنت سخيا معها ، لكنها لم تختلف عن بقية الخلق فى شئ . ظنت بى الغفلة والبله .

لست أدرى يا مولاى لماذا يستسهل كل من أعرفه أو أحبه ابتزازى والاستخفاف بعقلى ؟ هل هناك علامة خفية فى وجهى تشجعهم على استحلال مالى ؟ اننى أرى المال فى خزانتك يا مولاى لا فى خزانتى ولا فى يدى . هل هناك حروف غامضة فى كلماتى تغريهم باستغفالى ؟

ليتنى أصل إلى مفهوم الكرم والسخاء عند هؤلاء الناس . لاشك أنهم لا يعلمون أن السخى قريب من الله والجنة والناس بعيد عن النار ، وأن البخيل بعيد من الله والجنة قريب من النار ، وأنه لولا السهو والأمل لما مشى المسلمون في الطرقات .

فى البداية لم أنتبه ، وذلك لحسن نواياى تجاهها . لكنى تبينت تناقصا ملحوظا فيما أتركه فى البيت من مال يخصنى خلاف ما أخصها به ، وكان هذا التناقص يتزايد يوما بعد يوم ، لكنه لم يتوقف يوما واحدا .. وفضلا عن ذلك فانها كانت شديدة الالحاح فى طلب المزيد مدعية رغبتها فى شراء أشياء عديدة .

لم يكن هناك مفر من الشك ، كما لم يكن هناك بد من كمين أنصبه لها كى أقطع هذا الشك بيقين .

فوجئَت بوجهى هاشا باشـا أدعوها إلى العشاء في أحد المطـاعم الكـبرى . ما أن دخلنا حتى هرول نحوى صاحب المطعم ومن حوله مساعديه حيث قادنا إلى المائدة الرئيسية التى تتصدر تسع موائد أخرى حافلة بالطعام والشراب والفاكهة . تفقـدت المـوائد وأمرت باضافة أصناف أخرى من الاسماك والقواقع البحرية والفواكه ، ولما أن جلسنا بادرنى صاحب المطعم قائلا فى تباه :

- الموائد العشر جاهزة يا باشا وعلي كل مائدة طعام لعشرة أفراد .

نظـرت اليه شيرين في دهشة ثم التفتت اليّ متسائلة فتركتها غارقة فى حيرتها ، بينما واصل الرجل حديثه متسائلا :

- متى يصل المدعوون بإذن اللـه ؟

أجبتـــه فى حســم :

- لا تشغل بالك بهذه المسألة .. المهم أن تكون الخدمة ممتازة .

وقالت شيرين :

- ما الحكاية يا أحمـد ؟

- أنا في انتظار الضيوف وسوف تفهمين باذن الله .

- أى ضيوف هؤلاء وكيف لم تخبرنى وما المناسبة ولماذا هم مائة ؟

- لا تتعجلى .. كل شئ بأوانـه .

كنت مستمتعاً فى براءة بملامح وجه صاحب المطعم وهو يحوم من حولى عن بعد وينظر بقلق متصاعد فى ساعته من حين إلى آخر ، لكن متعتى بحيرة شيرين وارتباكها كانت متعة سادية بحق .

أنا لست ساذجا أيها الناس ، ولو أن الدنيا ما عمرت الا لقلة عقول أهلها بغفلتهم عن الموت . ربما أكون أكثر منكم فطنة بارادة الله ولكنى لست أحب التباهى والعجب .

صرخت شـــيرين فى عصبية :

- لابد أن أفهـم ما يحـــدث .

– هل أنــت مصرة ؟

– نعـــم أرجــوك .

– فكم سرقت من حقيبتى بالأمس ، وما مجموع ما سرقتيه منى حتى الآن ؟

– لابـد أنك جننـت .

– أنت تعلميــن أننى عاقل وأنك كاذبة .

ســارعَت باتخـاذ الهجــوم وسيلة للدفاع :

– وما الغريب فى أن تأخذ زوجة من مال زوجها ؟ .. لم أكن أتصور أنك شحيح لدرجة أن تحصى النقود على شريكة حياتك .

انفجرتّ فى الضحك فهرول صاحب المطعم تجاهى منتهزاً فرصة صفائى ليعاود سؤاله فى حرج :

– لم يصل واحد من الضيوف يا باشا حتى الآن .

قلت له فى هدوء أثار ارتباكـه :

– لا تقـــلق .

وبنفس الهـــدوء قلت لشـــيرين :

– انك سرقت ما يقرب من ألفى جنيه خلال الأسابيع الثلاثة الماضية ، أى منذ ليلة الزفاف حتى أمس الأول ، وأنا متنازل عنهم .. أما المائة جنيه التى سرقتيها بالأمس فإن لم تعترفى بها الآن سأطلقك على الفور .

والمؤسف أنها لم تكن موبوءة بهذا الداء وحدها ، إذ لاحظت أنها تتزعم

مجموعة من الصديقات تدير لهن شئون علاقاتهن بأزراجهن من خلال التليفون ولقاءات النادى ، ادارة مبعثها تسلط غريب ، حتى أننى فوجئت بها يوما تقول لاحداهن فى التليفون :

- لن يمضى هذا الشهر حتى أكون قد نجحت فى ترويضه .

فتحت فمها على اتساعه وأنا أدفع لصاحب المطعم ما يزيد على ثلاثة آلاف جنيه وكان الرجل قد تأكد بلا أدنى شك أننى مجنون وهو يتناول منى ثمن الطعام والشراب الموضوع على الموائد العشر الفارغة . سألنى فى ذهـول :

- والطعـام يا باشـا ؟

نظرت فى ساعتى وقلت له فى ثقة تامـة :

- حالا سيصل من يقضون عليه حتى آخره ولكن أرجو أن تحسن معاملتهم .

وعلى سلم النزول التقيت بالعشرات من أهلك يا مولاى يتدافعون فى فوضى جميلة قادمين من المولد المقام بأحد المساجد القريبة من المطعم .

****

تذوقت طعم الحرية بلا امرأة . كلما تحررت من ارتباط أنثوى مهما كانت متعته شعرت بأننى أكثر سعادة وانعتاقا ، وكأن القدر يهيؤنى لحياة غامضة جديدة حافلة بأسرار البهجة الحقيقية مترعة بنفحات الحب الخالد وأنوار الخلاص الأبدى ، حيث لا غواية ولا شهوة ولا امتناع ولا تدلل ولا كذب ولا رياء . ان شروطى للزوجة الغائصة فى لجة الغيب شروط مستحيلة لأنها لا تعرف الزوال ، ولعلها تنتظرنى بأمرك على أحر من الجمر فى العالم الآخر وليس فى أى منزل على وجه الارض .

وللانصاف لابد أن أقر لنفسى بأننى انسان صعب المعاشرة ، ذلك أننى أدور بكيانى كله فى فلك منهج " دنيا أخروى " قد يكون محدد المسار ولكن تعاستى تكمن فى أنى دائم الطمع فى تجاوزه إلى المسار الأعلى دون أن أسارع الخطى لتحقيق ذلك ، فأرتبك وأربك من تعاشرنى ، حتى أننى سمعت العبارة نفسها تقال لى من العديد من النساء بعد هجرى لهن :

- ماذا تريد منى ؟

وتكون اجابتي الهروبية العاجزة دائما :

- لست أريد شيئا .

أما الاجابة الحقيقية المطوية أبدا فى صدرى والتى أعجز عن مواجهتها فكانت دائما :

- لســـت أعــرف .

وقال أحد الفقهاء لأبى حيان التوحيدى " ما أشبه الدنيا وخداعها الا بقحبة حسناء تغازلك وتشير اليك وترغب فيك حتى إذا أجبتها ودنوت منها صاحت بالوالى وصرخت بالناس وأسلمتك إلى الفضيحة وزودتك الندم وعض الأنامل من الغيظ " وقلت لشيرين باقتناع شديد :

- أنـــتِ طـــالق .

****

قال لى المحامى الكبير فوزى عطا الله :

– يجب أن تعلم أن يد بسيونى تطول كل الجهات التنفيذية والتشريعية فى البلد

– هل يعنى هذا أن أستسلم له ؟

– بل يعنى المزيد من الحذر .

وقلت لنفسى لعل هذه اليد لا تطولك أنت الآخر يا عطا الله فإنى مرتاب فى أنفك المعقوف ، الشبيه بأنف كيسنجر البواس وحسن السمسار والقائد الجديد .

رفضت اللقاء مع المأمور وسيد بسيونى وأبلغت مسئولا كبيرا فى البوليس بتواطئه مع خصمى فما كان منه إلا أن نقل المأمور بشحمه ولحمه وخيانته إلى منطقة أخرى . لكنى لم أكن أعلم أن وكيل النيابة الذى جاء لمعاينة الحالة على الأرض قد كتب فى تقريره أنها ليست الأرض موضوع النزاع وإنما حددها بقطعة أرض أخـرى تبعد عن أرضنا بكيلو مترين ، متناسـيا أن جـيراننا فى نفس الموقـع باقون بأجســادهم وأرواحهم وبيوتهـم دون أن ينتقـلوا أو يسرى بهم مسافة كيلو مترين !

لم يكن فوزى عطا الله مبالغاً فى تحذيره ، ولكنى ما زلت مرتابا فى أنفه المعقوف مثلما ارتبت فى أسنان المأمور الصفراء .

كان ذلك التقرير المضلل سببا فى استناد الخصوم إلى وثيقة تشير مبدئيا الى

حيازتهم الحالية للأرض . ولقد انتهى دورهم المرسوم لهم عند هذه المرحلة لتنتقل الأوراق كافة الى ملكية سيد بسيونى بعد أن يدفع لهم - ولغيرهم ممن سيستخدمهم بعد ذلك - الفتات الذى يستحقونه عن جدارة ، ليصبح الصراع منحصرا فى النهاية بين آل الجدار وسيد بسيونى ومعه ذيول أخرى على رأسهم ذلك السلمان الجربوع الذى جاء من ليبيا خصيصاً ليكتشف تلك العلامة الخفية على وجهى والحروف الغامضة فى كلماتى لأغريه باستغفالى ، فينشئ على أرضى محطة بنزين غير مرخصة وبدون تسجيل ملكية وبعقد مزور ، ويقوم بتشغيلها رغم أنفى وأنف الحكومة الطويل وأنف فوزى عطا الله المعقوف .

لم يدهشنى ذلك كله ، وإنما الذى أدهشنى حقا أنه بعد مرور أكثر من عشرة أعوام على تلك الخديعة التقيت مصادفة بوكيل النيابة ففوجئت به يقبل على مهللا بوجه ضاحك سعيد ، فاتحا ذراعيه عن آخرهما ، مندفعا فى احتضانى بصدره كما لو كان شقيقا قادما من سفر بعيد .. فما كان منى إلا أن بادلته العناق بحرارة مماثلة دون أن أدرى سببا لما يحدث ، بل إنى أمعنت فى إظهار محبتى فقبلته من خديه ولم أكن أذكر اسمه كما أننى لم أكن أذكر من هو هذا المخلوق على الاطلاق ، لولا أن عرفنى بنفسه .

وتركته دون أن أسأله ماذا يريد ، ولماذا فعل ما فعل ، ودون أن أسأل نفسى أيضا لماذا فعلت ما فعلت . إن ارتباطى بالناس هش واحتياجى يا مولاى عظيم لأن تحررنى منهم وتغنينى بك عنهم .

تعبت يا مولاى ..

قالت لي طفلتى الوحيدة التى خرجت بها من الدنيا :

– لماذا لا تزورنا يا أبى ؟ .. انك توحشنى كثيرا .

وقالت سمية فى غل متفجر وهي أدرى بادعائها :

– اننى لم أر والدا فى قسوتك .

منذ تركت الجيش ضاع ليلى ونهارى بين القضاة والمحامين والشهود وأقسام البوليس . عزائى يا ابنتى أننى أجاهد لانتزاع حقك حتى تذكرينى بالخير بعد أن ألقــى ربــى . انه لا حيلة فى الرزق ، ولكنى مطالب بالسعى حتى لا تقولى لأبنائك حــين تكــبرين إن اللصــوص سرقوا أرض جدكم الخـائب وتركنى وحيدة بلا حول ولا قوة ..

أقول لك هذا يا راوية وهاتف يهتف بى متسائلا ماذا يغنى عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق سطحه ويبقي جوفه موحشا ؟

لا تتخيلى يا راوية كم أتوق إلى حضنك الصغير وقبلاتك الجميلة وتساؤلاتك البريئـــة عن الحياة والدنيا والناس .. ولكنى أفضل أن تبقى بعيدة عنى حتى لا تطولك أيدى البغاه . انهم لا يعلمون عنك شيئاً ، ولو علموا بوجودك لما ترددوا فى خطفك أو ايذائك بحيث استسلم لخستهم الدنيئة وأسلمهم عرضى وتاريخ أجدادى .

أنا أعلم أنك شقية تعسة بحرمانك منى ، ولكنك يوما ستفهمين مدى خوفى عليك ، فهذا قضاء الله وقدره ، وعلينا أن نسلم به يا ابنتى الحبيبة .

تعلم سمية جيدا أن قلبى لا يعرف القسوة . انى مشفق على محاولاتها الاستفزازية لرجوعى اليها ، ولكن هكذا أمر .

وقالت جولدا مائير لكيسنجر فى رسالتها – بعد أن خرقت وقف اطلاق النار

بغية قطع الطريق بين السويس والقاهرة - انه لا الحكومة الاسرائيلية ولا أى طرف آخر يستطيع أن يحدد على وجه القطع أين كانت الخطوط بين القوات المصرية والقوات الاسرائيلية عند منتصف ليلة ٢٢ أكتوبر ، وبالتالى فالحكومة الاسرائيلية لا تعرف الى أين تأمر قواتها بالانسحاب .

وكنت بحاجة ماسة إلى رجال يقفون معى بصدورهم فى العامرية كهؤلاء الرجال الذين وقفوا معى فى الكيلو ١٠١ ، وتساءلت ترى هل أجدهم ؟

أخـذ العدوان يستفحل والمبانى تعلو وقرارات المعاينة والتمكين تتوالى دون جدوى ، وكأننا نعيش فى غابة من الوحوش اسمها مصر .. وقال بريجينيف - الذى لا يعرف الله - فى انذاره الحاسم :

" نظرا لأن اسرائيل لم تلتزم بقرارات مجلس الأمن ، ونظرا لما يبدو من أن الولايات المتحدة تنقصها الرغبة فى التعاون بغرض تطبيقه ، فإن الاتحاد السوفيتى سوف يقرر بنفسه منفرداً اتخاذ الخطوات الضرورية العاجلة لتأكيد احترام وقف اطلاق النار ، فلا يمكن لاسرائيل أن تفلت من مسئولية انتهاكاتها له " ... ألا من بريجينيف مصرى يعرف الله ويقف معى ؟! ..

****

الجـــــربوع

لقـد تعبـت يا مولاي ....

ان أمـة خلقك فى أرض مصر بأكملها تقف مع الجربوع وهو يقيم محطة البنزين . شركة موبيل أويل - وأصحابها أجانب - تسانده وتعضده وتدافع عنه

دفاعا مستميتا . حى غرب المدينة - وأصحابه مصريون - يسانده ويدعم موقفه ، والجميع يتسترون على خطأ قانونى صارخ مع اختلاف أسبابهم ونواياهم .. حتى الأهالى سارعوا إلى العمل فى خدمته إما لأنهم لا يعلمون أننى قاتلت الموت دفاعا عن أرضهم وإما لأنهم يعلمون ولا يعبأون .

لقد أثبتنا للمحكمة أن عقد ملكية الجربوع مزور لأنه يخص منزلا بالقاهرة مات صاحبه منذ عدة سنوات .. وكالمعتاد قال البوليس كلمته وقالت النيابة كلمتها ثم قالت المحكمة كلمتها ، وما زال الجربوع راسخا على أرضى يضخ منها البنزين ، فلماذا يا مولاى استباح الجميع دمى حتى القادمين من أقصى غرب مصر ، وكأننى قد حظيت بشهرة عالمية فى السذاجة وسهولة التخلى عن الحق ؟ .. لماذا يا مولاى حين تقدمت لأرضى ودولتى وناسى وحكومتى من قبل بطلب إقامة محطة مماثلة على أرضى قالوا لى إن هذا الأمر دونه الأهوال .. عليك يا أحمد يا ابن الجدار أن تحضر لنا أوراقا وزنها ألف طن وطولها ألف ألف متر .. عليك بالتوقيعات والاعتمادات والتمغات والترخيصات .. وقبل هذا كله عليك باحضار أهم وثيقة في الدنيا وهى وثيقة ملكيتك للأرض التى نعرف أنك مالكها .

وأحضرت لهم يا مولاى كل ما طلبوا ، ولكنهم وافقوا للجربوع أن يبنى محطة على أرضى ولم يوافقوا لى .

أيام عبد الناصر كانت التعليمات واضحة قاطعة فى أقسام الشرطة ومراكز التحقيق :

" أنصروا الليبى على المصري ظالما أو مظلوما " .. أما فى أيامنا هذه فالتعليمات ليست واضحة وليست قاطعة ، ولكنها تقول :

" أنصروا صاحب أى جنسية فى الدنيا على المصرى ظالما كان أو مظلوما " ..

وبمرور الزمن تفننت التعليمات فى ظلم المصرى بأن أوقعته عليه خارج أرضه ايضا ، فهو يرسل إلى العراق بجسده وروحه فيعود بجسده فقط داخل تابوت ، وهو يرسل إلى الكويت مقاتلا بدون أجر ليعود بدون شكر ، وإلى ليبيا عاملا بأجر فيعود بجلبابه فقط بعد سنوات من الكدح ، وإلى الأردن ليعاد جثة مصحوبة بشهادة إعدام محررة قبل مقتله بعدة أشهر ، وإلى اليمن فلا يعود ، وإلى الصومال فيعود معاقا بلا يدين أو قدمين .. ومن العجيب أنه مستعد دائما لأن يرسل إلى أى مكان فلا يعترض عسيا بأن يكون هذا المكان أفضل وأكرم .. ترى هل يفكرون فى إرســـالى أنا الآخر إلى مكان غير مصر يوقعون فيه على مزيداً من الظلم والإيذاء ؟

والله لو أرسلونى فلن أقول لا !

*****

لابد أن فى الأمر شئ يستعصى على فهمى . اننى عاجز عن التقدم خطوة واحدة للحصول على حقى رغم أن محامى الاخير " عبد الله رمضان " ما زال صامدا يصارع معى عتاة اللصوص ، وهو رجل يعرف الله ، وأكاد أجزم أنه لن يخوننى ، بل انه مشفق على حالى حريص على مالى .. أما أنت يا عطا الله فحسابى معك عسير .

سبحانك يا مولاى حين تستر وسبحانك حين تفضح ...

عـندما صدر حكم مؤقت جـديد باسـتلامنا الأرض ، كلفـت ابـن شـقيقتي " أشرف " بالاشراف علي مائة حارس أتيت بهم من أهل قريتى وبعض القرى المجاورة لتأمين حماية الأرض أثناء الاستلام وبعده . ولقد كلفتنى رواتبهم ومصاريف اعاشتهم الكاملة مبالغ من المال طائلة ، حتى أن صديقى المقدم خالد سليم استحلفنى برفقة الموت التى جمعت بيننـا يوما أن أقبل منه عشرين ألف جنيه على سبيل المشاركة الوقتية فى الأزمة . جاءنى بالمنزل ومعه حقيبة تعمد نسيانها عند انصرافه لأنه يعلم أننى سوف أرفض مساعدته فأنا لا أقبل المساعدة الا من الله .

اتصلت به حين اكتشفت الحقيبة المغلقة فأقسم على نفسه يمينا بالطلاق أن أقبل القرض ، ووجدت نفسى مساقا إلى القبول فأدركت أنه سبب من الله .. وفى المساء أرغمته على قبول شيكات موقعة بالمبلغ تحسبا للمجهول .

حمدت الله كثيرا حين وجدت رجالي متعاطفين معى بقلوبهم وأجسادهم إلى

درجة تطلبت منى ومن أشرف أن نكون فى غاية الحذر خشية أن تسيل الدماء بينهم وبين رجال سيد بسيونى الذين جلبهم من المواخير والبارات ومن أعوانه فى تجارة المخدرات .

فى لحظة العمر الحاسمة ، والتى سوف تؤدى الى تغيير مجرى حياتى وحياة أهلى وأقاربى وأصدقائى وكل من أحب من الناس ، فوجئت باختفاء رجالى جميعا وكأن الأرض قد انشقت فابتلعتهم ، رغم أن أشرف كان قد حدد لكل منهم الجزء الذى سيحتله من الأرض لحظة التسليم والتحرير .

وسط هذا الارتباك وفى لحظة كلمح بالبصر رأيت عطا الله يتهامس مع الضابط المنفذ ومعه المحضر وبعض رجال سيد بسيونى المقيمين بالأرض المحتلة كما لو كان يلقنهم شيئا ما . صرخت فى أشرف دون أن يلحظنى عطا الله :

- أين الرجـــال ؟

قال وهو يقاســـمنى ذهـــولى :

- أبعدتهم عن الأرض طبقا لتعليماتك .

- تعليماتى ؟ .. ومن الذى أبلغك بهذه التعليمات ؟

- فـــــوزى عطـــا الله .

لم أصدق أذنى . تمالكت نفسى حين عاد عطا الله ومعه أحد رجال بسيونى الذين فوجئوا بحضور القوة فسارعوا بابلاغ سيدهم بما حدث .. وإذا بالضابط يقول له :

- استشكل فى الحكم يا ريس .

وعلى الفور استجاب الرجل للنصيحة الآمرة ، وكأن الضابط كان ينتظر هذه اللحظة فأعلن ايقاف تنفيذ الحكم بتسليم الأرض بناء على هذا الاستشكال ، وأمر المحضر باثبات ما حدث . انفجرت فى وجه الضابط :

- أنت مرتشى يا حضرة الضابط .

- عيـــب يا باشـــا .

- باشـا ايه ونيلة ايـه .. راع ضميرك يا أخى ..مسئوليتك هى تأمين حمايتى ضـد خصمى لا التواطؤ معه لإيقاف تنفيذ الحكم .

فى الطريق إلى العجمى كنا أربعة : أنا ومن خلفى اثنان من رجالى سيد الطواجنى ويوسف أبو رية ... وبجوارى فوزى عطا الله يقود عربته . لم أبادله كلمة واحدة منذ اكتشفت خيانته الصارخة . كانت يداه ترتعشان على مقود العربة وتجنب أن ينظر إلى وجهى تماما .

كنت منشغلا بأمر واحد هو كيفية البحث عن مبرر لإيقاف العربة حتى أقتله ، وتشاء الظروف أن ينفد البنزين فتقف العربة من تلقاء نفسها بجانب الطريق وينزل فوزى ليفحص خزان الوقود . فى تلك اللحظة أخرجت طبنجتى وإذا بسيد الطواجنى يلقي بنفسه من الخلف فوقي صائحا :

- أستحلفك بالله يا حاج أحمد . لا تضيع نفسك فى كلب كهذا . نحن نقتــله لك .

وأدركت حكمتك يا مولاى فى كل ما حدث فأيقنت أن أوان استرداد الأرض لم يؤن بعد وأن أرضى ستظل إلى أن تشاء بمشيئتك وحدك مشتتة بين سيد بسيونى

وسلمان الجربوع وبعض حثالة الأعراب .

فوزى عطا الله أكل معى فى بيتى ، واستنزف مالى ، ورغم ذلك باع نفسه للباغى ، فأى ابتلاء يا مولاى تلقى به على كاهلى ؟

ان منتهى أملى فى دار الفناء صدقة جارية ، وهذا لن يتأتى لى بغير استرداد أرضى وتحقيق حلمى بالتفرغ لعبادتك واسعاد أهلك والاستغناء عن التعامل مع الناس .. وأرضى يا مولاى بلاء ، وأنا أعلم أن من هرب من البلاء لا يصل إلى باب الولاء .. الأرض بلاء والناس بلاء ، وما بأيديهم غير الوهم والزوال والمادة ، أما أنت فانك الباقى الحقيقى والدائم . في دماء الناس يا مولاى تجرى الخيانة . يتشبثون بالدنيا تشبث الكلب بجيفة نتنـة .

يشترون القبح بالجمال والباطل بالحق . يتزاحمون يتنافسون .. لكنى مشتاق الى نعمة منك لا زحمة فيها ولا كدر ولا مكابدة ولا منافسة ، فألهمنى الصبر يا مولاى وانصرنى ولا تخذلنى . أنشلنى برحمتك من سلامة لا يعقبها إلا السقم ، ونعيم لا يثمر الا الحسرة والندم .. أقول لك الحق يا مولاي لو كان الأمر بيدى لزهدت الأرض والناس والدنيا وأفنيت ذاتى فى محبتك لكن أمرى بيدك ، فافعل بى ما تشاء .

قال لى واحد من الأعراب فى ذلـة :

- أنا أعلم أنها أرضك ، ولكنى أطمع فى كرمك يا حاج . هبها لوجه الله ، فأنا وأولادى بلا مأوى وسوف أكون خادمك المطيع وحارسك الأمين .

ولما تمكن من الأرض بنى فوقها ، ولما تمكن منى باع الأرض المحيطة بالبناء ، ولما قيل له أنها أرض الحاج أحمد الجدار قال بحرقة :

– أنا أعلم بذلك ، ولو جاء هنا سأقتله .

ولكنك لم تمهله إذ أسقمته بشلل ألجم لسانه ويده .. ولم يمض عليه أسبوع حتى مات وما أعجب أبناءه فانهم ما زالوا يقاضونني حتى اليوم لانتزاع أرضى ، وكأنهم يصرون على ألا يعتق أبوهم من النار .

****

لماذا لم أكتب روايتى بترتيبها الزمنى ؟

نصيحتى التى أتوجه بها الى القارئ الكريم ألا يخلط بينى أنا – أحمد الجدار – بطل هذه الرواية وبين سعيد سالم مؤلفها ، فأحدنا لا يعرف الآخر ، وأهدافنا من نشر الرواية تختلف تماما . أنا أتوجه بروايتى الى الله العليم بأمرى والذى لا يحتاج منى الى ترتيب أو تنميق . أخاطبه بفطرتى ومن وحى حال اللحظة . أتكلم اليه مرة عن زوجتى ومرة عن جنودى ومرة عن معاناتى مع لصوص البلد .. وهو يحبنى ولا يريد إرهاقى بحساب أزمنة وتوقيتات لأنه الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء ، فكيف أشغل بالى بالزمن فى حضرته ؟

ولكى أكون صادقا فاننى أفعل كما أمرنا رسولنا الكريم بأن نستغل رخص الله ، والله قد خلق لنا الاسباب ، وأسباب أزمتى فى أيدى رجال يعملون بالسياسة والاقتصاد والداخلية والخارجية ، وكلهم لم يأبهوا لى ولم يرقوا لحالى ، ولهذا قررت أن أبعث الى كل منهم بنسخة من روايتى لعل هذا يكون سببا فى الاهتمام بأمرى . ولما كانت قصتى مكتوبة بلا تسلسل زمنى فقد يرهقهم فهمها لا لغبائهم – لا سمح الله – فكلهم عباقرة يديرون البلاد على خير وجه ممكن ، ولكن لضيق وقتهم وربما لنفاد صبرهم أو لكثرة عيالهم وقلة مالهم ، فالقراءة فى

وقتنا هذا رفاهية وما أبعد وزراءنا ومسئولينا الأعزاء عن الرفاهية والترفيه . إن هؤلاء المساكين لا يجدون وقتا ضئيلا يجالسون فيه أولادهم أو يصطحبونهم معهم فى سفرياتهم العديدة إلى دول العالم لقضاء مصالح شعبهم الطيب . لهذا عنونت الأحداث بعناوين جانبية تسهل عليهم اختيار ما يهمهم قراءته سواء فيما يختص بمشكلتى مع الذين اغتصبوا أرضى أو بمشكلاتي مع رجال البوليس والنيابة والقضاء والجيش ، وربما كان منهم من يحب أن يطلع على مشكلتى مع سمية أو شيرين أو ميرفت ، فبعض كبار القوم أصحاب حظ ويعشقون النساء وأخبار النساء وهذا والعياذ بالله لا يمكن أن يتعارض مع إخلاصهم لوطنهم وتفانيهم فى خدمته ، ولكن للقلب حق أن يفرج عنه ولو قليلا بشئ من الترويح والزغزغة .

كان هذا موقفى ، أما سعيد سالم الذى أعطي لنفسه حق الحديث عنى كمؤلف يشطح بخياله كيف يشاء - فمشاكله لا شأن لى بها ان كانت لديه مشاكل تخص حرفته ككاتب فى دولة من دول العالم الثالث تعانى من الفقر والديون والارهاب والتخلف الاقتصادى وتوابعه . انه يعلم جيدا أن النقاد التقليديين لن يرحموه ، وقد يتهمه بعضهم بالعجز عن الكتابة السلسة التى يتحرك فيها الزمان الى الامام بغير رجوع ، مماحكة منه فيما ذكرت من حجج تخصنى وحدى كبطل للرواية .. أما لماذا يكتب ولمن ، فهذا أمر لا يعلمه الا هو وخالقه ، ولو أنى لا استبعد أن يكون هو الآخر متجها بروايته الى الله غير عابئ برضاء أحد سواه . والحق أننى لو كنت أعرفه لنصحته ألا يعبأ بهم ، فأنا - صاحب القضية - معجب كل الاعجاب بهذا الشكل المثير الذى صاغ به روايتى ولو التقيت يوما بهذا الكاتب الماكر لقلت له إن كتابات نقاد هذه الايام لا ينبغى أن تؤخذ على محمل الجد عند صاحب الرأى السديد ، وذلك لأسباب عديدة جعلتهم يحيدون عن جانب الحق العلمى ، وهى فيما أجزم نفس الأسباب التى جعلت حسن الجاويط يقبل يد أبي ويسرق أرضه ، والتى

جعلت وكيل النيابة ينقل الأرض من موضعها على الورق والتى جعلت قائدى يطمع فى ابتزازى ، مثلما جعلت أتباع بسيونى يضعون لى الثعبان فى مخدعى .

لو كنت أعرفه لرجوته ألا يفعل كما يفعل معظم الكتاب ، فلا يهدى نسخة واحدة من روايته - روايتى - لأحد ، وعلى من يرغب فى نقده مشكوراً فليبحث بنفسه عن الرواية ، فهذه رواية ضد الشهرة والانتشار والعائد المادى .

إنها رواية إلى الله كما ذكرت أنا فى المقدمة التى كتبها المؤلف .

*****

الكيلو ١٠١ ... الوجـه :

جرى العرف أن يمتنع الطرفان نهائياً عن التراشق بالنيران مهما كانت الأسباب خلال انعقاد مفاوضات الكيلو ١٠١ بين مصر واسرائيل ، والاسرائيليون لا يضيعون وقتهم سدى ، فكانوا يستغلون تلك الفترات فى القيام باستطلاعات برية لاستكشاف نقاط الضعف فى الموقع المصرى المواجه لهم عند الكيلو ١٠١ .. أى موقعي .. ولو نجحوا فى التسلل عبر المنطقة المحرمة الفاصلة بينى وبينهم لاكتشفوا أننى أعسكر على تل بلا خلفية تحميه حتى مسافة خمسة كيلو مترات ، من بعدها يوجد أول تجمع خلفى لقوات مصرية ، فاستطلاع الطيران لا يكشف بدقة عن الخبايا الجغرافية لهذه المنطقة الجبلية الوعرة المعروفة باسم " مشش البحارة " ، ولو تمكن الاسرائيليون من احتلال هذه المنطقة الخالية لأصبحت قواتى تحت رحمتهم تماما ، وقال كيسنجر لجولدا مائير فى اسرائيل أمام أعضاء مجلس الوزراء الاسرائيلى والقادة العسكريين :

- يســتطيع جيشـك مواصلة عملياته بعد وقف اطلاق النار ، على الأقل

طوال المدة التى تستغرقها طائرتى من هنا الى واشنطن ، علما بأننى سوف أتوقف لساعات فى لندن !

بينما قال السمسار البواس نفسه فى رسالة لوزير الخارجية المصرى حافظ اسماعيل :

- أعلمكم أننى استطعت الحصول على موافقة اسرائيل على وقف اطلاق النار بصفة عاجلة وبشروط لا تمنح أى الطرفين ميزة على الطرف الآخر .

وكان السادات قد رفض الاستماع الى مستشاريه أو حتى مقابلتهم ، اذ قرر أن يواجه الحل السياسى بمفرده ويمسك بيده وحده كل الخيوط ، ورغم أن التقارير العسكرية كانت لصالح القوات المصرية الا أنه أصر على سرعة اصدار قرار وقف اطلاق النار .

أما أنا فلم يكن لدى شئ لأقوله ، فقالت لى راوية :

- أريد أن تهزنى على الأرجوحة مثلما كنت تفعل زمان .

- لن أستطيع يا راوية خوفا عليك من المجرمين الذين أحاربهم .

- وهل ستظل تعيش وحدك فى العجمى حتى تموت وتتركنى يا أبى ؟

- ان شاء الله سنلتقى يا راوية ونعيش معا إلى الابد .

****

فوجئت بجنود ثلاثة يعبرون المنطقة المحرمة من الجانب الاسرائيلى - أثناء المفاوضات مترجلين فى اتجاه موقعى . التفوا وناوروا بذكاء من حول التلال المحيطة بالطريق حتى لا يراهم أحد . كنت وجنودى نتابعهم ونرصدهم حتى

تمكنا من أحدهم فأرديناه قتيلا داخل الأرض المصـرية بينما لاذ زميلاه بالفـرار عبر المدق الى منطقتهم .

انقلبت الدنيا فوق أم رأس أحمد الجدار قائد الكيلو ١٠١ .. كيف يطلق هذا المجنون النار أثناء انعقاد المفاوضات لفض الاشتباك ؟ .. كيف يسيئ إلى سمعة مصر سياسياً ويظهرها بمظهر الدولة التى لا تحترم كلمتها ولا تلتزم باتفاقاتها الدولية ؟ .. كيف يعرض المفاوضات للانهيار ويكون سببا في عودة القتال من جديد وفشل مساعى الرجل البواس للسلام الذى تنتظره الدنيا ؟ .. لا شك أن الجدار قد جن .. هكذا تحدثت الاشارات وهمست التعليقات وتوالت الانذارات .

كان كل طرف يتسلل بجنوده فى الوقت الملائم ليزرع الألغام فى مواقع محددة فى المنطقة المحرمة بحيث يعرفها هو ولا يعرفها الخصم ، وكان جنودى قد زرعوا فى تلك الآونة - على عجل - لغما مضادا للدبابات وآخر مضادا للأفراد بالقرب من المنطقة التى وقع بها حادث كسر وقف اطلاق النار .

وقفت مع بعض الجنود أعلى التل أرقب رد فعل الأمم المتحدة من جهة والقيادة المصرية من جهة أخرى ، حين بدأ العدو باطلاق سيل من النيران فى اتجاهنا من مدافع يحملها أفراد ومدافع أخرى مثبتة فى دشم محصنة ، أما دباباتهم فكانت تبعد بمسافة زمنية عن المنطقة . حينئذ أصدرت أوامرى الى طاقم الدبابات بادارة ماكيناتها دون أن تتحرك . ما أن سمع القائد الاسرائيلي صوت مواتير الدبابات ورأى غبارها المتصاعد حتى كف عن اطلاق نيرانه على الفور خشية أن تدك موقعه بمدافعها .

راح الجنود يلطمون خدودهم ويهيلون التراب على رؤسهم وهم يصرخون لهول

الكارثة الموشكة على الوقوع ، اذ تحركت عربة للأمم المتحدة من بداية المدق ، تليها مدرعة اسرائيلية إم ١١٣ ، والاثنتان معرضتان للانفجار خلال ثوان معدودة .

أصبحت فى غمضة عين مهددا بالمحاكمة العسكرية والاعدام رميا بالرصاص كخيل الحكومة الموبوءة ، لتضيع كل بطولات جنودى وتضحياتهم سدى !

وتكلمت اليك يا مولاى ..

قلت لك اننى شرف مصر وكبرياؤها وكرامتها فى الكيلو ١٠١ ، واننى لم أبدأ بالعدوان بل دافعت عن حرية أرضى ، وسألتك يا مولاى ان كنت أدافع عن باطل فلتنفجر عربة الأمم المتحدة بمن فيها حتى ألقى جزائى ، وإن لم أكن على حق فانى لن أتردد لحظة فى عبور المنطقة المحرمة والقتال الى جانب اسرائيل .. أنت الحق يا مولاى وأنا أدافع عن الحق فلا تخذلنى .

حبست أنفاسي حين اقتربت عربة الأمم المتحدة من البقعة الملغومة ، ووضعت يدى على عينى وأذنى ، وجسدى يرتعش ، وقلبى ينتفض ، والجنود من حولى يصيحون كالمجانين ، حتى مرت لحظة تساوى عمرى كله حين نزع جندى يدى بشدة من على وجهى وهو يصيح والجنود من حوله مهللين متقافزين فى فرحة طاغية :

– الحمد لله .. الله أكبر ..

كانت عربة الأمم المتحدة قد تجاوزت منطقة الخطر واقتربت من موقعها دون أن تصطدم بأحد اللغمين بمعجزة أقوى من الحلم ، ولم أكد أستعيد أنفاسى حتى دوى انفجار نارى هائل وانبطحنا جميعاً على الرمال ولهيب الانفجار يتصاعد الى السماء مخلفا حطام المدرعة الاسرائيلية .

استجبت لتضرعى يا مولاى ووهبتنى عمراً جديداً بعد عمرى الذى أفنيته فى عصيانك .. فكيف لا أخجل من نفسى أمام كرمك ورحمتك ؟

توقفت عربة الأمم المتحدة وكان بها ضابطان أجنبيان وضابطان مصريان كبيران .

نزل أحدهما مندفعا إلى موقعى وهو يصيح فى غضب جامح :

- أين المجنون قائد هذه الوحدة ؟

ثار الجنود وغلى الدم فى عروقى ، لكنى تماسكت قدر امكانى رغم شعورى بالظلم والاجحاف . لم أجبه بكلمة واحدة وإنما أشرت له بأصبعى الى جثة القتيل الاسرائيلي داخل أرضنا ، تهللت أساريره فجأة وأسرع فى استدعاء ضابطى الأمم المتحدة اللذان عاينا موقع الجثة ، وبذلك ثبت للعالم أن الاسرائيليين هم الذين بدءوا بكسر وقف اطلاق النار ، وإننا لم نطلق النار الا دفاعا عن النفس .

****

سـيدى :

كان نادراً أن يقول له أحد يا أبى . قال لى وقد تمكن من ضبط انفعاله :

- هذه ورقة وهذا قلم . أكتب لى كيف صرفتهم وأقسم أننى سأعطيك مثلهم مرة أخرى .

فى القاهرة وعلى مدي يومين فقط أنفقت مصروفات التحاقى باحدى الكليات واقامتى وتنقلاتى على الأصدقاء ، ثم مررت على خالى واقترضت منه مبلغا اضافيا أنفقته فى اليوم الثالث .

- أكتب يا أحمد وكف عن البكاء .

لم أكتب شيئا ، وكان أبى عائدا لتوه من البلد حين أبلغته أمى بفعلتى . لم يضع حقيبة سفره على الأرض . قرر الرجوع الى البلد على الفور رغم انهاكه الشديد واحتياجه الضرورى للنوم .

سألته أمى في لهـــفة .

- إلى أين يا سيدى ؟

- عائد من حيث جئت .

- ألا تستريح قليلا ؟ ألا تأكل ؟

- هذا أفضل من أن أمد يدى عليه .

اندفعت نحوه متوسلا بتقبيل يـده :

- اضربنى يا سيدى ولا تمشى .

قال بحب زاده الغضب جمالا :

- لا أستطيع يا أحمـد

****

وعدت يوما أترنح من سطوة الخمر قرب الفجر فرآنى لسوء حظى وهو يستعد للصلاة . توقعت أن يطردنى من جنته لكنه اكتفى بشم فمى ولحظنى بنظرة كاوية واستعاذ بالله من الشيطان وانصرف عنى كما لو كنت وهما .

اعتكفت فى غرفتى لأيام عديدة خشية مواجهته واذ به يطرق بابى يوما :

- يا بنى أنت حر فى معاقبتك لنفسك ، لكن هل تريد معاقبتى أنا الآخر ؟

- كيف يا سيدى ؟

- أنت تعلم أننى أحب مجالستك والحديث معك .

- بالطبع يا سيدى .

- فلماذا تحبس نفسك عني .

****

أثناء الحرب كان جنودى يكتبون له الرسائل نيابة عنى اذ خشيت الامساك بالقلم لحظة واحدة لأكتب إلى أحب الناس فتدهمنى العاطفة حيث لا موقع لها حينذاك ولا مجال .

لم أكن أعرف أنه أصيب بشلل هستيرى طوال فترة غيابى لأنى لم أكتب له خطابا واحدا ، بل اننى لم أفتح خطاباته أو خطابات اخوتى وأخواتى . كنت قد سلمت روحى للقتال فلم أجد معنى ولا سببا يدفعنى الى أدنى اتصال وجدانى بأحد قبل أن أنهى مهمتى المقدسة .

وحين عدت فى اجازة خاطفة مفاجئة ، ذهل الجميع لرؤية سيدى يقفز من الفراش طائرا نحوى يعانقنى ويبكى مرددا اسمى مربتا على صدرى وظهرى . أما شقيقتى فلم تتردد فى تمزيق سترتى حتى تتأكد أن جسدى خالٍ من الاصابات .. أذهلتنى شراسة المرأة حين تحب فيتهدد حبها بالضياع .

****

تفشت الفرحة بين الجنود حين علموا بزيارة قائد اللواء لوحدتنا كى يعبر لهم عن امتنان القيادة وتقديرها الشديد للأعمال البطولية الانتحارية التى قاموا بها ، والتى جعلت القائد الاسرائيلى يطلب لقائى للتعارف بى ، وللتفاخر بأنه اشترك فى القتال ضد رجالى .

جمعت القوة واصطفوا حاملين اسلحتهم وراح قائد اللواء يتفقد الوحدة . فوجئت بسحنته تنقلب فى غضب مفاجئ وهو يشير الى ملابس الجنود المهترئة ولحاهم الطويلة وشعورهم الكثيفة ، قائلا فى سخرية غثة :

– عساكرك هيبيز يا حضرة الضابط ؟

انتقلت الصــدمة كالوباء بين الجميع ابتداء منى وانتهاء بأحدث جندى في القوة .. ماذا أقول لهذا المغرور المنتفخ الذى يتناسى بطولات الرجال ويتحدث عن شعر رؤوسهم وذقونهم ؟ .. أسألك يا مولاى انابة لا رجعة فيها ولا حور يا مصلح الصالحين ويا هادى المضلين ويا أرحم الراحمين .

– يا فنــدم الرجـال حاربوا ولم يكن لديهم الوقت ولا الأدوات لتصفيف شــعورهم ؟

– كنـــت أحســـب أن قوتك منتقاة من خيرة جنـــود مصـــر ليمثلوها فى الكيلو ١٠١ .

سامحنى يا مولا فأنا عاجز عن كظم غيظى :

- يا فندم رائحة سيادتك تفوح بالعطر وياقتك منشاة وذقنك حليقة لأنك ...

قاطعني بغضب جـارف :

- ماذا تقول يا حضرة الضابط ؟

رأيت الاحباط والدهشة والغضب المكتوم على وجوه الجنود فقلت له بحدة :

- أقول أنك لو حاربت مثلهم لما أبديت مثل هذه الملاحظة .

لم يكد يكشر عن أنيابه ويفكر فى وسيلة لإيذائي حتى أصاب أحد الجنود صرع مفاجئ وراح يصرخ حتى سقط مغشيا عليه ... وما كان من الجندى الواقف من خلفى - وكان أشدهم تعلقا بى - إلا أن رفع رشاشه وراح يجري وهو يطلق وابلا من النيران على الاسرائيليين وهو فى حالة هستيرية لم يجد باطنه بديلا عنها لتفجير طاقة السخط المنضغطة فى صدره وصدري وصدور إخوانه الجنود المصدومين فى قائدهم الأعلى .

فى لمح البصر انهال علينا سيل من طلقات المدافع والرشاشات من الموقع الاسرائيلى وإذا بالقائد يجرى بسرعة البرق ليلقى بنفسه فى أقرب حفرة وهو يصيح بلا وعى قائلا :

- عيـــــالى ... عيـــــالى ...

تبادلنا معهم القصف على فترات متقطعة . سألنى بنبرة ضعيفة وهو ملتصق بى فى الحفرة :

- كيف أصـل الى قيادة الموقع ؟

- تزحـف يا فنـدم

وزحف أمام الجنود ، وفى أسماعه ترن كلماتى الموجعة :

- عيالك فى البيت يا خويا .. هنا يحارب رجالك الهيبيز !

وحين هدأ الجو وغادر الموقع كان حزينا وكانت كلماته مسالمة . احتضننى وعبر عن إعجابه بشجاعتى ورجولة عساكرى .

لكنك وحدك عليم بخبايا القلوب ، فمن أين لى أن أعلم ما حبسه في قلبه لى من ضغينة وبغضاء ؟

****

الخــروج والدخــول

حين صدرت نشرة بأسماء الضباط والصف والجنود الذين قاموا بأعمال بطولية غير عادية والحاصلين على نجمة سيناء ، لم يكن اسمى بينهم .

في تلك اللحظة قررت أن أترك الجيش وكان قرارا لا رجعة فيه . جن قائد الكتيبة غيظا لما وقع على من ظلم فأخذ دفتر سير حوادث الكتيبة ودفتر سير حوادث اللواء وعرضهما على قائد الجيش الثالث متخطيا قيادته المباشرة .

بعد أن انتهى قائد الجيش من قراءة سير الأحداث أصدر أمرا بمنحى نوط الشجاعة من الطبقة الأولي ، وصدر هذا الأمر فى نشرة مستقلة منفصلة تحمل اسمى فقط .

رغم ذلك لم أتراجع عن قرارى ، وكيف لى أن أتراجع فأبتعد عنك وأنا أنشد القرب والوصال ؟

انى قــادم اليــك فافتح لى رحابك وامنن على بالايمان والمحبة والتوحيد

والطاعـــة .

كيف لى أن أتراجع وسؤال قائد الكتيبة يرن صداه فى أذنى حتى اليوم :

- هل أخرجت الزكاة يا جــدار ؟

تعجبت لسؤاله وأجبته دون أن أخفى دهشتى :

- لا .. لم أخرجها بعد .

فعـــاود ســــؤالى :

- هل دعوت لنفسك فى ليلة القدر بالأمس ؟

- لا .. لم هذه الأسئلة المحرجة ؟

- أردت فقط أن أطمئنك إلى أنك أخرجت زكاتك وأقمت دعاءك .

- كيـــف ؟

- لقد أطعمت بالأمس خمسمائة جندى فدعا لك منهم عشرة على الأقل .

يا مولاى لقد أحاطت بى الغفلة والمعصية والشهوة وبهرتنى الدنيا ، فاستجب بكرمك لدعاء هؤلاء البسطاء وأيدني بالمحبة في محل التفريد والوحدة وأنبت على أشجار اللطف والحنان وأدخلنى مقام قربك فإنك أنت الله الملك المنان .

وخرجت من الجيش لأجد أرضي مسروقة . سرقها من استرددت لهم صواريخهم المصرية التى سرقها اليهود . أمضيت أربع ساعات أصطلي وجنودى بنيران العدو حتى استخلصنا صـــواريخنا من أنياب الموت ... ثم يسرقون أرضى وأرض أجدادى .

لم أكن أتصور بعد استقالتى من الجيش أن يمر عام وراء عام ، وأنا عاجز عن استرداد أرضى بقوة القانون ، غارق فى القضايا والملفات والمحاكم والمحامين . تعجبت كيف يكون هذا حالى وأنا متفرغ للدفاع عن أرضى وتساءلت ماذا كانوا سيفعلون بى وبأسرتى لو بقيت بالجيش .

قال لى صديق وهو يرى أعصابى تتآكل أمامه :

- ارحم نفسـك يا أحمـد .

- الرحمـن هو اللـه .

- إن أعباء القضايا التي تحملها وحدك جديرة بمؤسسة لا بفرد واحد .

- اللـه معي .

- نعم ، لكنك بحاجة إلى أن تريح أعصابك حتى تستطيع الصمود .

- حقا ، أنا بحاجة ماسة إلى الخلوة .

- فر بجلدك الى فرنسا . أمريكا . أسبانيا .. أو أى مكان آخر .

بل إنى فارّ إليك يا مولاى وبرحمتك أستغيث .

- معك حق ، لكنى سأسافر إلى المكان الذى سيعيد إلىّ سكينتى .

- إلى أين .

****

لم تقسو على فى ابتلاءاتك يا مولاى ؟ .. ألهذه الدرجة تحبنى ؟

أعرابية ما رأيت جمالا كجمالها ، وما فتنتنى نظرات كنظراتها . أى سر ذلك الذى جاء بها ياربى لتسكن بالغرفة المجاورة لغرفتى فى البيت الذى أسكننا به المطوف ؟

ذكاء ملتهب يشع من عينيهـا القـاتلتين . مطاردة لا رحمـة فيها تجعل الحديد يلين .

يا سيدتى لا تجهدي نفسك وتجهدينى معك فأنا أعلم أنك رسول الشيطان يجيئنى فى مقتل حتى يقطع على الطريق إلى مولاى إلى الأبد .. ولكن كيف أهرب ؟

قالت انها غير سعيدة بزواجها ، وانها تمتلك فى مصر قصرا كبيرا ، وان زوجها يخشاها ولا يستطيع أن يرفض لها طلبا .. الهمنى الرشد يا مولاى وقنى شر نفسى .

قالت انها مستعدة لأن تستضيفنى بعد العمرة في أفخم فنادق القاهرة للمدة التى أشتهيها ..

اللهم اكفنى بحلالك عن حرامك .. ولكن أين حلالي هذا وأنا عاجز عن العثور حتى اليوم على زوجة صالحة ؟؟

هربت من البيت الى بيتك أحتمى بك من ابتلائك الرهيب .. " يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك انك كنت من الخاطئين " ... أفطر فى المسجد على تمرتين أو ثلاث وأشرب من ماء زمزم ، ثم أصلى المغرب ثم العشاء والترويح والتهجد

حتى الثانية والنصف صباحاً . حينئذ فقط أتناول وجبة هى الافطار والسحور معا حتى أضمن الانفلات من المطاردة حين أعود الى البيت منهكاً ، منهوما الى النوم .

ورغم ذلك فانها أصرت على انتظارى ذات يوم . بعثت بصبي ينادينى قائلا انها تحتاج الي فى أمر جوهرى . صرفت الصبى ورحت استعيذ بك من الشيطان بلا توقف ، ويا لإصرارها وجرأتها إذ جاءت بنفسها تطرق بابى ، حتى أننى تساءلت ذاهلا لماذا أتت هذه المرأة إلى الأراضى المقدسة ؟

كانت نصيحة أبى هي رائدى ودليلى في التعامل مع المرأة .. " المرأة فى أى مكان وزمان يا أحمد هى أختك أو أمك أو ابنتك .. لا تتعامل معها إلا من هذا المنطلق حتى يأذن الله فتكون زوجتك وحليلتك " .

صحيح أننى تناسيت نصيحة سيدي طوال سنين الغفلة .. لكنى لم أتردد حتى حين تكررت الطرقات بعصبية ، وتوسل ، وعناء ، وجنون ، ورجاء ، ولم أفتح لها الباب ! .. فآه من بعد السفر وقلة الزاد ووحشة الطريق .

****

أجاويد الشيخ حمودة أبو الحمد

أستغفرك يا مولاى فقد عزمت على ألا أترك وسيلة على وجه الأرض دون أن أطرق بابها لأسترد أرضى من الأوغاد .. وقيل لى ان الشيخ حمودة رجل مبارك لا يتعامل الا مع الأجاويد وأنه لا يتقاضى المال أو الهدايا لقاء كشفه عما مضى من غيب عن الشاكى ، أما غيب المستقبل فإنه يستعيذ بالله من ادعاء معرفته أو محاولة معرفته ، فكل أجاويده جن مؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالتالى فهم مؤمنون بالغيب موقنون أنه من شأن الله وحده .

ترددت مراراً على ذقنه المثلثة وأسنانه الطويلة وعينيه اللامعتين وابتسامته الغامضة والبخور يتصاعد من حولنا في حلقات . لا وسيط ولا حجاب بيننا . يسألنى وأجيب ثم يأمرنى بالصمت ويبدأ في حوار جانبى مع أجاويده وكأنه يراهم بالفعل .

بررت لنفسي اللجوء اليه بأنه سبب من جهة ، وبأن الأجاويد مؤمنون من جهة أخرى .

قالوا له ان أعمالاً شريرة لا حصر لها تحول بينى وبين أرضى ، وان أعدائى وخصومى يستأجرون عتاة السحرة ليعقدوا لى هذه الأعمال .

- والحل يا عم الشـيخ ؟

- لا مفر من إبطال مفعول هذه الأعمال .

- البركة في كراماتــك .

- كراماتى ملك للكافة أما التكلفة فتخصك وحـدك .

- أنفق كل ما أملك لأسترد أرضي .

- على بركــة الله .

****

ما أن أتاح الزبانية الفرصة لسيد بسيونى أن يتعطل تنفيذ الحكم لصالحهم حتى سارع باجراء عقود بيع لقطع متناثرة من الارض الى بعض ذوى النفوذ والسلطة من بينهم ضابط مباحث من أبناء أحد السماسرة بالمنطقة ، عرف بالصفاقة والبلطجة ، ولقد علمت فيما بعد أن هذا الضابط قال له :

- أحلق شاربي لو صمد آل الجدار أمامى أسبوعين .

ها أنا صامد يا مولاى منذ عشرين عاما ...

كنت أستأجر فى الصيف بعضا من طلبة المعهد الدينى بفوّه للقيام بأعمال البناء والنجارة فى القطاع الذى أحتله من أرضى ، والمقام عليه بيت من طابق واحد يقيم فيه أشرف ومن معه من رجـــال .

في الشتاء يعود هؤلاء الطلبة إلى دراستهم وقد تمكنوا من تدبير نفقات عامهم الدراسى الجديد .. وقليلا ما كنت أقيم فى هذا البيت لارتباطى الروحانى الشديد بمنفاى الاختيارى في العجمى ... فيلا من طابقين محاطة بحديقة عامرة بثمار العنب والجوافة والبشملة .

في النهار تحوم من فوقها العصافير المسبحة بحمد الله ، وفي الليل يسكنها الصمت والوحدة لا يبدد وحشتها الا تلاوتى التى لا تنقطع للقرآن الكريم .

قطع على أشرف خلوتى ذات ليلة ليخبرنى باختفاء ثلاثة من طلبة المعهد الديني . قال ان ضابط المباحث حضر بعربة الشرطة ومعه أبوه وبعض المخبرين .

اختطفوا الطلبة واتجهوا بهم ناحية الفيلا التى تخص أسرة الضابط .

فى قسم الشرطة أبلغت الضابط المختص بما حدث .. " إدعى لى شاب يدرس بكلية الشرطة أنهم يقولون لهم هناك أن يضربوا من يشاءون بالحذاء حتى لو كان أستاذا بالجامعة " ...

كان رد فعله مؤكدا لتواطئه مع زميله ضابط المباحث ، إذ ادعى أنه لا يصدق ما يسمع .

أنذرته باللجوء الى مدير الأمن ما لم يتحرك على الفور لانقاذ الشباب . تمادى في عنجهيته ولم يتحرك من مقعده .

نفذت انذارى وحين عدت إلى الفيلا وجدت الأولاد الثلاثة مكومين فى ركن بالحديقة يرتعدون من الذعر والبرد ، حتى انهم فروا هاربين من شبحى فى أرجاء الحديقة قبل أن يعرفوا ملامحى فى ظلمة الليل .

كانت آثار الضـــرب بادية على وجوههم وعلى الجروح المتناثرة على أبدانهم . أصابتـــنى قشـعريرة جعلتنى أنتفـــض تقـــززا لشـدة الوحشـية التى عومل بها هؤلاء المساكين .

لقد انهال الضابط وأبوه على الأولاد ضربا بالأيادى والعصي والأقدام لمجرد أنهم يعملون فى أرضى . بعد ذلك كتفاهم بالحبال وحبساهم فى دورة مياه عفنة ، حين حضر الضابط الذي سمعوه يتحاور مع زميله طالبا منه أن يفرج عنهم بأمر مدير الامن . سمعوهما أيضا يتبادلان القفشات والضحكات حتى انصراف الضابط على وعد من زميل مهنته بأن يعيد الأولاد بنفسه إلى أرض العامرية بعد أن ينتهى من آخر جولة تأديبية لهم .

كان الأب السمسار العجوز أشد قسوة من ابنه الضابط الشاب فى البطش بضحاياه الابرياء . وضعاهم فى عربة نقل صغيرة وانطلقا بهم غربا في عمق الصحراء حيث ألقيا بهم فى مقلب زبالة بعيد لا يرتاده الا الذئاب والعقارب والكلاب المتوحشة ومطاريد المخدرات وقطاع الطرق ، ولا يعرف مكانه الا سائقى عربات القمامة الكبيرة الذين يحضرون لتفريغها به على دورات ليلية متعاقبة .

قال أحدهم لوكيل النيابة وقد استحالت رعشة جسده من الخوف الى الغضب :

" كنت عاجزاً عن تحريك جسدى رغم احساسى بالقذارة والنتن من حولى ، وبحركة حشرات لا أتبينها فوق جسدى . لقد ضربانى بلا رحمة دون ذنب يا فندم . وصرخت فزعا حين جائتنا النجدة الالهية بقدوم عربة قمامة ضخمة لتفريغ محتوياتها فوق رؤوسنا تماما . إذ كان الظلام دامسا وكان من المستحيل على السائق أن يتصور وجود آدميين فى قلب هذه النفايات المتخمرة وفى تلك المنطقة الصحراوية النائية الموحشة . ازداد صراخى حين اقتربت اطارات العربة الرهيبة من جسدى ولامسته بالفعل ، ولكن أراد العزيز الكريم أن يتوقف السائق عن تحريكها وجسدى ملتصق تماما بإطار العربة الخلفى " .

حين وصل بهم السائق إلى مركز تجمع عربات القمامة فى محطة مصر ، كان مصرا على اصطحاب بعض زملائه والعودة إلى بيت الضابط وأبيه للفتك بهما ، ولم يكن أمام الأولاد إلا أن يهربوا من كارثة جديدة هم فى غنى عنها ، واثقين من أننى كفيل بأمرهم باذن الله .

ورغم قرار وزير الداخلية بتشكيل لجنة كبرى للتحقيق فى أمر واقعة الاختطاف ، الا أن ثقتى بأحكام البشر مهزوزة .. ولحظة أذان الظهر قلت لك

يا مولاى اننى لن أرتضى الا بحكمك فثقتى بعدالتك لا حدود لها .

أصدرت الأسباب حكمها بسجن الضابط وأبيه ثلاثة أشهر فقلت لعله يكون حكما رادعا لهؤلاء الضباط الموهومين بأنهم على درجة طينية أكثر علوا ونقاء من إخوانهم المدنيين حتى أنهم يعاملونهم معاملة السيد المتجبر للعبد المسكين .

****

فدادين الشيخ حمودة أبو الحمـد :

استغرقت المسألة من وقتى شهراً ومن جيبى ثلاثة آلاف جنيه ، وعندما فتحت جريدة الصباح وجدت صورته تحت عنوان بالبنط العريض (الدجـال) وانهال الصحافى سخرية من الجهلاء الذين تعاملوا معه فابتزهم وسخرهم لخدمته ولم يحقق لهم إلا ما تحقق بمحض الصدفة فقلت لنفسى اننى جدير بخيبتى وانقطاع أملى لأننى استحق ذلك بالفعل .

وكدت أطوى الجريدة لولا أن لفت نظرى بيان بحصر ممتلكات الدجال وإذ بى ألمح ضمن الحصر ستة أفدنة بالعامرية فى نطاق أرضى المسروقة !

ولما أخرجه كبار القوم من سجنه عاد إلى صومعته ، ولم أتردد كثيرا في معاودة اللجوء اليه مرة ثانية ، لكنه ادعى أنه لا يعرفنى وأنه لم يسبق له أن رآنى من قبل وتظاهر بأنه لم يعد يتعامل مع الأجاويد إلا فى خدمة أهله وأصدقائه المقربين فقط .

وكانت غرفته عبقة برائحة الحشيش .

****

خسائرى فى دنياى تتزايد يا مولاي ، ولكن " عسى أن يبدلنا خيراً منها إنا الى ربنا راغبون " .

في شهر رمضان من أحد الاعوام الفائتة بلا معنى جاءنى الدكتور شوكت . جار قديم للأسرة لم أسمع عنه شيئاً منذ سنوات عديدة ، ما أن رأيته حتى تذكرت حكمته التى أتحفنى بها في صباى أن أبتعد قدر امكانى عن المرأة فهى أصل كل سوء ومبعث كل رذيلة .

كنت أتشكك فى صدق حكمته كلما رأيت " ميرفت " فمن غير المعقول أن تعـرف الملائكة الرذيلة أو أن يأتى السوء من ملاك هبط إلى الأرض عن طريق الخطأ ، وكان من المستحيل أن أبادلها الحديث أو حتى مجرد التحية لأنها من نور وأنا من طين فكيف يتفق النقيضان ؟؟

كنت فقط أحلم بها كما أشاء . أطير معها فى السماوات وأهبط بها فى الحدائق الشاسعة والجنان الخضراء . هواؤنا معطر وأنفاسنا ملونة وحياتنا عشق ونشوة وهيام .. أراها فى رداء أبيض وجناحين رقيقين . على رأسها تاج وردى تخلعه حين تجالسنى وتضعه أمامى .. يفوح عبيرها فى المكان وأنظر إلى شعرها الطـويل الناعـم وإلى عينيها الزرقاوين فى وله لا أقوى عليه في صحوى أو منامى ، فتدور رأسى وتأخذنى النشوة إلى السماوات العلى ، حينئذ فقط أجرؤ على مبادلتها الحديث ومطارحتها الهوى والغرام .

لم أكـن أعرف أن الدكتـور شوكت صـديق للسيد بسيونى الا بعد أن صرح

لـــى قـــائلا :

- آن الاوان يا حاج أحمد لحل النزاع بينكما سلميا .

تذكرت المحاولة القديمة للمأمور ذى الاسنان الصفراء والتى نفرت منها فى بداية الصراع . كانت عيناه تشعان بالانتهازية والتآمر ، أما هذا الرجل فيبدو - والله أعلم - أنه حسن النية وليس صاحب مصلحة ، فلم لا أجـرب ؟

- وأنا لست أحب الحرب .

- لنتفق على موعد نلتقى فيه ثلاثتنا .

- على بركـة الله .

ويا فرحة عمرى يوم ابتسمت لى ميرفت وهى تمر من أمامى فى حياء .. ويا لروعة الكون وجمال مخلوقات الله من إنس وجن وحيوان ونبات وجماد ، حين كان حياؤها المثير يبهرنى فيضاعف من عجزى عن مواجهتها . وعندما أصافحها فكأننى أصافح روحا لا أصابع كف من دم ولحم وأعصاب . أكاد لا أرفع عينى فى وجهها حتى لا تتضرج وجنتاها بحمرة الخجل والانفعال .

ولطالما كتبت فى حبها القصائد والرسائل الملتهبة بنار الوجد ولم أجرؤ على إعطائها واحدة منها . كنت على قناعة من أن الكلمات المكتوبة وحتى المنطوقة لن توفيها حقها من التعبير الحقيقى لحبى الجارف لها .

- نلتقى فى فندق الشيراتون على مائدة السيد الخاصة .

- المسألة أكبر من النقاش حول مكان الاجتماع .

- أنا أفضل هذا المكان لانهم يعرفون مزاج السيد فى الشراب وهو لا يجيد

الحوار بدونه .

ويا صدمة عمرى يوم تعهد أبى - بحكم مقامه - أمام مأمور القسم بضمانها فسمح لها بالخروج من الحجز رغم التعليمات المشددة باستبقائها . كان أبى محبوبا في كل موقع يحل به : فى البلد . في القاهرة . فى الاسكندرية . في العامرية .. هناك حب إلهى يشع من وجهه على الناس فيحبونه على الفور ، وهذا سر لم أفهمه إلا بعد فوات الأوان .

حين أخرج المأمور الصور الفوتوغرافية من درج مكتبه ليطلع عليها أبى الذى كان غارقا فى ذهوله ، منكرا بكل جوارحه لما يرى بعينيه ، ألقيت بنظرة مختلسة عاجلة على احدى هذه الصور فارتعشت ركبتاى واصطكت ضروسى وسرت فى جسدى قشعريرة لم تتكرر فى حياتى حتى الآن وسقطت متشنجا على الارض .

بعد قليل خرج أبى مصطحبا ميرفت الى أسرتها منكسة الرأس . وفى البيت ربت على كتفى بحنان وعاتبنى على ذلك الانهيار غير المبرر والذى يبدو أنه أزعجه كثيراً . حدثنى عن صور ميرفت الفاضحة التى أكدت تعاملها مع شبكة دعارة يديرها يهودى أمريكى يعيش متنقلا بين مصر ولبنان .

- يشرب فى رمضـان ؟

- وفى أى وقت .

- لكنى لم أعد أرتاد هذه الأماكن لا فى رمضان ولا فى غيره من الشهور .

- نؤجل اللقاء إلى ما بعد العيد .

- ليكن فى عيادتك لو لم يكن لديك مانع .

- اتفقنا ، وسوف أحدد لك اليوم والساعة بعد انصراف المرضى .

حدثنى أبى عن المرأة الأخت والمرأة الأم والمرأة الزوجة والمرأة زوجة الصديق .. قال لى كلاما جميلا عنها يفيض بالمودة والاحترام والحنان . تمنيت أن أكن مثله تلك المشاعر الرائعة نحو المرأة لكن صور ميرفت الفاضحة لم تترك لى الخيار ، فتأجل اعترافى بما يقول أبى لأعوام طويلة .

الذى حدث أننى منذ ذلك اليوم شربت جرعة مكثفة من دم الواقع ، فما أن صرت شابا حتى انطلقت فى عالم الليل أصول وأجول وأنفق المال بغير حساب لاشباع شهواتى التى لم تتوقف عند حد . أتبارى مع أندادى فى القدرة على تعاطى الموبقات حتى الصباح دون أن أفقد وعيى .

تهافتت علىّ النساء من أرقى المستويات الاجتماعية . صار اسمى علما فى أماكن اللهو الكبرى . الكل يتودد إلى ويتباهى بحضور مجلسى ومشاركتى العبث والعنف والمجون والبذخ . لم أكن أطيق معاشرة امرأة لاكثر من يومين أو ثلاثة حتى أملّها فأختلق الوسيلة كى أقصيها فجأة عن حياتى إلى الأبد ...

فيما عدا دليلة فهى الوحيدة التى نجحت فى الاستحواذ على عقلى وجسدى لأشهر متتالية ، إذ جعلتنى استمتع بمسرحية تمثيلية تتجدد فصولها يوما بعد يوم . ولما صارحتها بضرورة أن ترحل عنى توسلت إلى أن تبقى عندى ولو كجارية تخدمنى مع العشيقة الجديدة التى لا مفر آتية عن قريب .

ولحسن حظى أن سارعت دليلة بحسم موقفى منها حين تضامنت مع بعض السكان - دون علمى - ورفعوا قضية ضد صاحبة البيت التى تؤجر شققه مفروشة مطالبين اياها أن تحرر لهم عقود إيجار رسمية . حين علمت بذلك طردتها وسلمت

الشقـة لصاحبتهـا على الفـور فانهار أسـاس القضية وجائتنى صاحبة البيت تشـكرنى قائـلة :

- كنـت أعـلم أنـك ابن ناس وأنك لا ترضى بالظلم والخيانة ... الله يهديك يا بني .

قال السيد بسيونى بمخارج حروف تثير التقزز وفم يفوح برائحة الخمر :

- أنا الآن تلميذ يرتدى مريلة في مدرسة الدكتور شوكت فهل تقبل أن تلبس مريلة مثلى لنتحدث فى رعايته .

كان محاميه يجلس معه ، وكنت معى بجلالتك يا مولاى فقلت له :

- أنا أتحدث فى رعاية الله .

قال السيد وهو يعلم أنه كذاب فاجر .

- لقد اشتريت الفدان الواحد بمائة جنيه من الأعراب .

اندفـــع الدكتور شوكت قائلا دون الرجـوع إلىّ أو مشـورتى أو سماع وجهـة نظـــرى :

- اذن يدفع لك سيد باشا خمسمائة جنيه عن الفدان ويا دار ما دخلك شر .

غلى الدم فى شرايينى وتذكرت أسنان المأمور الصفراء وأيقنت أنها مؤامرة يلعب فيها جارنا القديم دورا حقيرا كشأن كل أعوان سـيد بسـيونى وزبانيتـه . قدمت لنا الممرضة القهوة وقلت كاظما غيظى :

- لعلك تذكر يا سيد بك أنك أرسلت محاميك هذا نفسه لشراء الأرض من

والدتى ولما رفضت شراءها بالسعر الذى تستحقه فعلا ، قررت وضع يدك عليها من خلال السماسرة والأعراب لتشترى أوراقها بملاليم .

- لا داعى للحديث فيما مضى .

أيده الدكتور شوكت القادم من المجهول قائلا لى بابتسامة صفراء :

- نحن نتحدث عن المستقبل . ما رأيك فيما عرضت ؟

الآن يسألنى النذل ؟؟

- رأيى أننى اكتفيت باللقاء والتعارف ، فأنتم معلمون كبار وأنا رجل لا أفهم فى " المعلمة " ولن يكون بينى وبينكم إلا القضاء .

فى وقاحة سافرة قال سيد بسيونى :

- أنا عارف أنها أرضكم ولن أتركها الا على جثتى . وعليك باستلام ثمنها من المحاكم بعد عشرين سنة .

اذهب غيظ قلبى وأجرنى من الشيطان يا مولاى ...

- أتقبل هذا على نفسك وأولادك ؟

- أنا وزوجتى لا ننجب ، وأعلى ما فى خيلك اركبه ، فكل الرؤوس الكبيرة فى جيبى وسرعان ما سوف تأتى صاغرا لتقبل ما أقرره .

قلت بثبات أمددتنى به يا مولاى :

- وأنا تارك عندك وديعة وسوف أتسلمها بإذن الله ولو بعد عشرين عاما .

واصل استفزازه وهو يضحك ساخراً :

- لقد ذهبت إلى الوزير فهل أعطاك مترا من الارض ؟

- العاطى هو الله .

- فلتعـلم يا عـزيزى أنـــه ما أن غادرت مكتبـــه حـتى اتصل بى ليخـبرنى بزيـارتك .

- من هذا الذى اتصل بك ؟

- الـــــوزيـــــر .

- عظيم .. فماذا عن ربـــه ؟

وطلبتنى للقائك حين انطلق الأذان بصلاة العشاء بمجرد انصرافي ، فعجلت بالذهـاب إلى أقرب مسـجد .

بعد الصلاة فكرت أن أعود إلى الدكتور شوكت لألومه على موقفه أو حتى لمجرد التعليق على اللقاء الذى دبره حتى أعمل فراستى فى خطوط وجهه ، وكان سيد بسيونى قد انصرف منذ فض اللقاء .

كان باب العيادة مواربا ربما عن طريق سهو دبرته الاقدار . دخلت دون أن يشعر بى أحد ، تحف بى نواياى الحسنة من كل جانب . لم أجد بالصالة أحدا . فتحت باب غرفة الكشف لأجد الدكتور شوكت منكبا على الممرضة يقبلها فى لهفة كلب مسعور على قطعة من اللحم . كدت أتقيأ ما بجوفى من طعام وغادرت المكان على الفور .

كانت حكمته القديمة تتردد فى مسامعى بقوة ، تلك الحكمة التى جعلتنى أدمن الاستمتاع بكل لحظة في جاهليتى حتى النخاع .. وأجـد فى الملذات

السلوى عن خسائرى فى عملي وفى بيتى وفي ابنتى وفى الأصدقاء . كان الملل يستبد بى أحيانا فيزداد سخطي على نفسى وعلى من حولى فأشعر باختناق قاتل ، ورغم ذلك أعود من جديد إلى حياة الليل . أعيشها كما لم يعشها أحد ، مستمرئا أفانين اللهو كافة ، مضفيا عليها من خبرتى الجديد والجديد ، حتى لا أترك نفسى فريسة للملل لحظة واحدة .

انى أخافك اليوم ولا أخافهم . اللهم إنا نجعلك فى نحورهم ونعوذ بك من شرورهم . إنى راض بعقابك الدنيوى الأليم . راض بالوقوع بين أيادى خونة يستنزفون مالى وجهدى وصحتى وعمرى . راض بهذا كله حتى ترضي عنى وتكفر عن سيئاتى .. فبقدر غضبك القديم منى عاقبنى يا مولاى .. أدبنى يا مولاى .. ربنى يا مولاى .. أنزل علىّ الهم والغم والكرب حتى تخفف عنى الحكم فى اليوم العظيم .

****

كبار القوم

مشيئتك يا مولاى سابقة لكل شئ ...

حين ألحقت بوحدة عسكرية في أحد الموانى المهجورة عرفت الصمت والوحدة والسكون لأول مرة . تأملت فى ملكك يا ملك فانبهرت بما في هذه التجربة من جديد ومثير . حياة شديدة الجفاف . عساكر فقراء أميون جبلوا على الطاعة والولاء . مناخ يتقلب بين الحرارة والبرودة . مساحة خضراء محدودة يحتضنها الجبل على المدى البعيد من كل جانب وكأنه يمدها بالحماية والحنان . ليل لا علاقة له بليل القاهرة والاسكندرية . أشم رائحة الخشب المحترق الذى يشعله الجنود للتدفئة فأشعر

بسكينة غريبة على نفسى .

أستمع الى ثرثراتهم الهامسة حول النار . تذهلنى بساطة الموضوعات التى تشغلهم وسذاجتها . أتذكر آخر موعد لم يتحقق مع آخر امرأة التقيت بها . لم يجذبنى اليها جمالها الفتان وإنما جذبنى كبرياؤها العنيد الذى قررت إذلاله كى أحقق أقصى ما أبتغيه من متعة ونشوة .

التجاعيد البارزة المتشابكة على جبين المسنين من أهالى المنطقة البحرية كانت تشد انتباهى وتأملى في فكرة الزمن . لابد أننى سأتوب يوما لو حظيت برعايتك . لولا ميرفت لتغير مسار حياتى تماما .

ان ما حققته حتى اليوم من رصيد المجون والعبث يكفى جيلا من الشباب حتى يبلغ شيخوخته ، لكن ماذا أفعل بنفسى المتهابطة الظلماء وبئر الشهوة حالك السواد عميق القرار .

خرير مياه الجدول القريب من معسكرنا يجذبنى برفق إلى عالم البراءة القديم الذى عشته قبل ميرفت . أسراب الطيور المهاجرة إلى سماوات بعيدة مجهولة تشد بصرى وبصيرتى اليك . أحملق فى الشمس نهارا وفى القمر والنجوم ليلا كوثنى قديم يبحث بفطرته عنك .

لم أستطع الصمود أمام جنونى المعتاد رغم انبهارى بروعة هذه الحياة الاستاتيكية الجديدة التى واجهتنى بعظمتك . لم أتصور أن يخلو قلبى من العشق يا مولاى فالقلب الذى يخلو من ألم العشق وروعته ليس قلبا ، والجسد الذى لا يؤرقه القلب ليس إلا ماء وطينا .

توهمت أن حريتى هي انقيادى لأسر العشق بمسراته وأحزانه . فجئت

اليك وأنا العبد العاصى المذنب كى تنقـذنى مما أنا فيه من ضياع ... وكنت معى يا مولاى .

كنت معى حين جاءنى رجل ذو نظارة سوداء يحمل حقيبة منتفخة ويقف على رأسى فجأة بغرفة مكتبى ، قبل أن أتساءل كيف يصل مدنى إلى مثل هذا الموقع العسكري بتلك السهولة ، فوجئت به يضع الحقيبة على مكتبى ويفتحها دون أن ينبس بكلمة . هالنى ما رأيت من " رزم " مكدسة من أوراق البنكنوت الكبيرة . قال لى بابتسامة واثقة :

- ربع مليون جنيه يا باشا .

صـرخت فى وجهه :

- من أنت وكيف وصلت إلى هنا وما هذه الفلوس ؟

وناديت الحارس النوبتجى بصوت أقرب إلى الزئير . حين جاءنى متخاذلا قرأت فى عينيه كيف ابتلعه الرجل ، وصرفته على أن يكون حسابى له لاحقا .

قال ذو النظارة السوداء في برود قاتل :

- هدئ أعصابك يا باشا . المسألة لا تستدعى الشوشرة .

وحين أطلعنى على سره ألقيت بالحقيبة فى صدره واندفعت نحوه أضربه بقدمى فى مؤخرته بينما يجرى هاربا إلى الخارج وهو يصيح فى ذهول :

- لابد أنك مجنون . لابد أنك مجنون .

قلت له متوعدا :

- لو عدت إلىّ مرة ثانية فسوف أجعل العساكر يقتلونك بصفة شرعية لاقتحامك الموقع .

ومع اشراقة صباح اليوم التالى صدرت الأوامر بتحريك كتيبتى الى الصعيد .

جلست إلى نفسى متأملا أراجع الأسباب الحقيقية لامتناعى عن قبول رشوة قد يسيل لها لعاب غيرى ، خاصة وأنها تدفع نظير فعل يكاد يكون سلبيا ولا يحملنى أدنى مسئولية . كل ما هو مطلوب ألا تعترض حراسة الميناء بوحدتى حمولة معينة تخص واحدا من كبار القوم ... وكبير قوم فى يومنا هذا لا يعنى الا تاجر مخدرات بغض النظر عن منصبه الذى يستتر من خلفه فيما يفعل .. عرفت أننى لم أتقاض الرشوة لأن أبـى عـلمنى أن أكون شريفا أمينا لا خوفاً من الناس ولا إرضاء لهم ولكن لأننى غير جدير بأن أوصم بالوضـاعة وخيانة الضـمير . لم أتقاض الرشـوة لأنى أحبك يا مولاى رغم انغماسى فى معصيتـك .. أمـا آن الأوان أن تطهر قلبى من أدران الغـواية والهوى وتمـلؤه حتى الثمـالة بنفحات من المحبة تصلنى بك وصلا لا ينقطع ؟

****

ملاحظات لا يجـوز إغفـالها :

(١) كلما تذكرت قرارى بالخروج من الجيش لم أندم عليه لحظة واحدة .

(٢) إن حـب الشئ لا يـزول الا بقهـر النفـس على مفارقته حـتى يصير ذلك اعتيـادا .

(٣) التقيت فى اليابس الثانى بالعديد من الشرفاء من رجال الشرطة والقضاء والجيـش والقانون والنيابة ، ولكن ما شأن القطرة فى محيط ؟ .. والتعـميم ليـس عدلا وإنما العدل هو اللـــه .

****

الأحـــــوال :

لو كنت قادراً على هداية نفسى لاهتديت اليك منذ زمن بعيد ، فما أكثر اللحظات المصيرية التى أتانى فيها هاتفك ولم أستجب له . لكن توقيت المشيئة جاء مدهشا ومثيرا ، اذ ترك الابواب كافة ودخلنى من باب التأمل .. الباب الذى يرضينى ويقنعنى ويريح قلبى . ففى لحظة تكون الحياة حافلة بمجموعة من المسلمات الراسخة فى العقل والروح ، وفى لحظة أخرى أجدها خالية تماما من أى أثر لها .. وما بين اللحظتين أتقلب بين الدهشة والرضا وبين الذهول والقبول وبين الحزن والسرور .

رأيت أبى وقد استحال جسده العملاق فى ختام رحلته إلى كومة من العضلات المرتخية ثم مات فلم يعد له وجود فى حياتى بعد أن كان يملؤها باشراقة وجهه البشوش وكلماته الحلوة ودعواته الصادقة . ولقد ذهب بجسده عنى لكنى استبقيت بشاشة روحه منذ لحظة وقوفي على حافة المقبرة وهم يهيلون التراب على جسده فما الموت ؟

قالت لى زوجة صديقى عن زوجها بلا حياء :

- انه انسان حقير شاذ .. خسارة أن تكون صديقه .

وكانا قد تزوجا عن حب ، وأنجبا عن حب ، وعاشا فى حب ... مسلمات لم تهتز لحظة في خاطرى فما الحياة ؟

وقتل شاب أمه بأن ظل يطعنها فى صدرها بالسكين بكل قوته وهى تفر منه

متوسلة اليه أن يرحمها دون جدوى ، فمن هو الانسان ؟

وشاهدت أخى يسقط ميتا على الأرض وهو فى عنفوان شبابه على أثر لكمة عادية من صديقه في مباراة ودية للملاكمة . كان مثالا للجد والاستقامة وطهارة القلب فلم العناد والمكابرة ؟

وأحبتنى كل النساء اللاتى كذبت عليهن فى جاهليتى أما التى صدقت معها وتزوجتها فلم تعرف كيف تحبنى . تركتها ومعها قطعة منى .. أحبك يا راوية ، لكن ما هو الحب ؟

واختلف الحكام فتحاربت الجيوش وقتل الشبان بعضهم بعضا تحت رايات القانون والنظام والدولة والجيش والجهاد والاستشهاد والسيادة والانتصار والشجاعة . ثم تصالح الحكام وتبادلوا الورود والقبلات والسجائر وصافح السادات جولدا مائير ثم حصل مع بيجين على جائزة نوبل للسلام ، وصافح عرفات رابين وحصلا معا على نفس المكافأة وتساءل أهالى القتلى عن سبب قتل أبنائهم ولم يجبهم أحد فما جدوى الحرب ؟

وضاعت ثروة صديق فجأة ورأيته بعينى يتحايل فى ذلة للحصول على ثمن وجبة طعام لأسرته فما الحظ وأين الاجتهاد والمثابرة ؟

وكرست قريبة لى حياتها لزوجها وأبنائها وراعت الله فى كل ما فعلت فهجرها زوجها سعيا وراء داعرة لا قلب لها فما هو الاخلاص وما الخيانة وأين راحت المسلمات ؟

أمسكت بالسارق وعرفت الراشى وأبلغت عن المرتشى وحاربت المعتدى ولم يتغير شئ فأين الامان ؟

كل شئ عولت عليه فى حياتى - سواء أكان فكرة أم شعوراً أم كائنا بشريا - تبين لى أنه إما متغير وإما زائل .

لا ثابت فى حياة كلها أغيار ولا مفر من التسليم لك وحدك فأنت الثابت الأوحد والقيوم المطلق .

قال لى رئيس أركان القوات المسلحة :

- تمهل يا جدار وأعد النظر فى قرارك .

لم أشأ أن أقول له كيف أبقي بالجيش وقد خذلنى .. كيف تتركون أرضى نهبا للصوص وتجار المخدرات يقتسمونها فيما بينهم منذ يوم الثغرة وحتى انقضى عام بأكمله دون أن أسترد منها شبرا واحدا . أين أنت الآن يا رئيس الأركان بعد عشرين عاما من ذلك اللقاء والحال باق على ما كان عليه بل إنه قد ازداد سوءا ؟ .. قال لى بثقة :

- أنا أعلم بقضية الأرض ، وما دام الأمر معروضا على القضاء فالجيش لا يمكنه أن يفعل شيئا .

إذن فعلى بالذهاب الى من يفعل كل شئ .. بل يقول للشئ كن فيكون .. إن كنت حقا أريد أرضي وأنا عاجز عن فهم معانى الموت والحياة والانسان والحب والحرب والحظ والاجتهاد والمثابرة والاخلاص والخيانة والامانة ، وإن كنت حقا قد تعلمت أنه لا مسلمات في دنيا الأغيار ، فلا بديل من الذهاب إليك .

****

اصطحبت سائقا خبيرا بمساجد القاهرة ومقامات أولياء الله الصالحين وأهل البيت .. أنا أعرف أن بابك مفتوح وأنه لا وساطة بين مخلوق وبينك لمن شاء أن يخرج إلى باب حضرتك ..

أنا أعرف أننى أبدأ من درجة دنيا فى مقامات التوبة والصبر والشكر والخوف والرجاء والتوحيد والتوكل والمحبة والشوق والأنس والرضا والنية والاخلاص والصدق والفكر وذكر الموت وآلاف المقامات التى تجاوزها الى جلالك السالكين .

ولأنى أعرف أن درجتى دنيا ومطلبى دين .. لأنى أعرف أنك تحبنى معرفة يقين فإنى لجأت إلى من أحببت من أوليائك الصالحين لا من باب الوساطة وإنما من باب الاقتراب ففى محبة المحبوب قرب من الحبيب والمحبة ثمرة المعرفة ، وأنت الحبيب المطلق الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه .

وقف السائق بعربته أمام مسجد السيدة زينب ونزلنا معا . على باب المسجد رأيت شيخا وقورا أبيض الوجه والملبس والشعر والذقن والحاجبين ، متطلعا إلى فى لهفة غريبة ...

قدم نحوى بسرعة وهو يقول :

- أين أنت ؟ .. نحن ننتظرك من زمان .

تلفت من حولى لأبصر من يخاطبه هذا الشيخ فلم أجد أحداً سواى . سألته فى دهشة فائقة :

- أنا يا عم الشيخ ؟

- نعـم أنـت .

دهش السائق أيضا فقال للشيخ بنبرة طافحة بالسخرية :

- يا مولانا انها أول مرة يزور فيها وليا في حياته .

قال له الشيخ بود وبشـاشة :

- أسـكت أنـت .

ثم التفت اليّ قائـلا :

- لماذا تأخرت كثيراً ؟ .. أدخل انها تريدك .

في لحظة ذهولي ودخولي انطلقت الزغاريد من حولي وانتابني شعور بأنني مخلوق بلا جسد ... هكذا فجأة ؟؟ .. لا مسلمات أبدا فالتسليم لك وحدك .

بعد أن أنهيت صلاتي في جوار المقام رأيت رجلا مسنا يبكي بحرقة وينهنه بكلمات غير مفهومة ، حين هبط عليّ الهاتف آمرا اياي أن أحتضن هذا الرجل وآخذه في صدري ففعلت .

هل أنكر ما حدث ؟ .. لا .. لقد شهق الرجل ثلاث مرات متتالية وكف عن البكاء وتبدل حزنه سكينة ورضا .. هل أنكر ما حدث ؟ .. لا .. انه راح يضحك من قلبه ويقبلني ثم انخرط في تعبده ووجدت نفسي أتسلل بعد احتلال قاعدة أم كتاف الحاكمة ومعي دورية الاستطلاع الليلي لاستكشاف الملاجئ الكائنة بأسفل القاعدة الحقيقية التي استقر بها اليهود ، وحددت القيادة مدة العملية بساعات ثلاث تشمل الذهاب والاستكشاف والعودة . اكتشفنا حفرة كبيرة كانت مخصصة لعربة . نبهت على الجنود بأن يلقوا بأنفسهم فيها بمجرد أن تطلق علينا الكشافات

أو النيران . وبدأنا فى فحص الملاجئ . وجدناها مكدسة بصواريخ سام ٢ ، سام ٣ المحمـلة على عـربات وكانت بلا حراسـة فاليهـود يخافون الليـل ولا يحرسـون إلا عـن بعـد .

حين اقتحمنا الملجأ الاخير اندفعت فى وجوهنا مجموعة من الكلاب التى تذأبت من أكل لحوم الجثث مطلقة نباحا أشبه بالعواء المسعور ، أعقبه سيل من الكشافات سلطت علينا من القاعدة ، فطرنا بأجسادنا إلى الحفرة وكنا أحد عشر مقاتلا . تأخر جندى واحد عن اللحاق بنا فأدركته الكشافات .

وانطلقت علينا مدافع الدبابات . جحيم مستعر لم يتوقف طيلة أربع ساعات كاملة كانت كفيلة بالقضاء على معظم الكلاب وهروب بعضهم . كان الساتر الترابى للحفرة تجاههم فلم يصب فرد منا بسوء فى حين تأكد اليهود أنهم أبادونا تماما . فكر البعض فى الخروج من الحفرة والعودة إلى القاعدة بعد أن توقفت النيران فأصدرت أمرا بالبقاء . وبعد ربع ساعة أطلق اليهود قذيفة هاون مضيئة للتأكد من خلاء المنطقة وتعجبت لأنهم لم يستخدموا الهاون الذى كان بإمكانه اصابتنا فى الصميم رغم أنهم محترفون في استخدام هذا السلاح . ساد صمت طويل وبدأ الجنود يستعدون للخروج فنهيتهم للمرة الثانية وإذا بقديفة هاون مضيئة أخرى تنطلق تجاهنا بعد نصف ساعة من الصمت . لست أدرى لماذا جلجل صوت أم كلثوم فى أذنى فى تلك اللحظات الحالكة منبعثا من سرداب الماضى وهى تغنى :

يقظة طاحت بأحلام الكرى .. وتولى الليل والليل صديق .

وإذا النور نذير طالع .. واذا الفجر مطل كالحريق .

أى عبث هذا الذى يدعونى إلى تذكر قصيدة غنائية فى وقت تظن فيه القيادة

أننا انتهينا عن آخرنا وقد مضى على موعد انتهاء العملية أكثر من ساعة .

جاءنى الهاتف باعثا فى كيانى بقشعريرة غريبة دون أن يهمس لى بشئ فأصدرت أوامرى للجنود بالخروج من الحفرة وعدنا بأمرك إلي قاعدتنا سالمين .

وكان سائق التاكسى ينظر إلىّ متوجسا بين الحين والآخر من خلال المرآة الأمامية ، يريد أن يقول لى شيئا لا يعرفه فيفضل الصمت لكنه يعاود اختلاس النظر إلىّ من جديد ، وحين يكتشف أننى أرصده من خلال نفس المرآة يسارع بغض بصره فى ارتباك واضح .

توقف بى أمام مسجد السيدة نفيسة . فى المقام غمرتنى سكينة هائلة . أحسست أنها أمى الروحية وناجيتها مناجاة الابن لأمه الغائبة الحاضرة ، ولم ألبث أن انفجرت فى البكاء دون أن أدرى كما لم أبك من قبل وكنت أرى فى دموعى مطهراً يغسل قلبى من الخطيئة وينظفه من خرائب الشياطين ليكون بيتا عامرا بنورك وحدك .. بينما لم تكف النساء عن اطلاق الزغاريد منذ دخولى المقام وحتى غادرته .

بهت السائق وسألنى وعيناه متحجرتان فوق قطعة خبز صغيرة ظهرت فجأة فى موقع سجودى :

- لم تبك يا حاج .. فيه حاجة ؟

- لن تفهم ما بداخلى ولن أستطيع أن أفسره لك .

وفى مسجد السيدة فاطمة الزهراء قال لى الامام :

- أدخل المقام . انها تريدك .

فسأله السائق وكانت حيرته فى أمرى قد استبدت به :

- وأنا يا عم الشيخ ؟

- لا .. هو فقـط .

عندما فتح باب الضريح الزجاجى ودخلت المقام لاحظت أن السلسلة الحاملة للوحة المعدنية المعلقة على المقام والحاملة لاسم السيدة وتاريخها ، قد بدأت تهتز يمينا ويسارا . كان العقيد نشأت قد علمنى وردا أقرأه عند زيارتى للأولياء . توقفت عن قراءة الورد حين لم أصدق ما أرى ، بل انى خشيت على نفسى من الهوس وكان لابد أن أبرر هذا الاهتزاز الغريب المنتظم بدخول الهواء من خلفى حين فتحوا لى الباب .. وعندما استقر ببالى ذلك الخاطر توقفت السلسلة تماما عن الحركة . لكن ما أن عدت إلى قراءة الورد حتى عاودت الذبذبة من جديد إلى اليمين تارة وإلى اليسار تارة ، وعينا السائق تروحان وتجيئان معها فى ذهول مثير .. وعند خروجى سألنى بصوت عال :

- هل رأيت ما رأيت ؟

- أســـــكت .

وفى مسجد الامام الشافعى كلما انحنيت متأهباً للسجود رأيت وجها شديد البياض تحت جبهتى تماما .. كلما سجدت فوقه شع نورا من حولى . خشيت على نفسى من الجنون وحمدت الله أن السائق كان يصلى بجوارى حتى أسأله بعد الصلاة إن كان قد رأى ما رأيت . ما أن انتهينا من الصلاة حتى فوجئت به يندفع نحوى قائلا وقد اختفى الوجه تماما من موقع السجود :

- هل رأيت الوجه الذى كنت تصلى عليه ؟

" اللهم صلى على سيدنا محمد " ﷺ " ... هكذا صاح قائد الكتيبة مهللا حين أقبلنا نحوه قبل بزوغ الفجر ساحبين معنا كل ما كان بملاجئ القاعدة الاسرائيلية من صواريخنا المسروقة سام ٢ ، سام ٣ ... إن السؤال مازال يطن في أذنى حتى اليوم :

- لماذا لم يضربك اليهود وقد رأوك وجنودك تسحبون الصواريخ ؟

كنا في مرمى نيرانهم وكانت المسافة تسمح بتدميرنا فلماذا تركونا نفوز بالغنيمة دون انتقام ؟

قـــال القـائد :

- ألا تدرى أن طلقة واحدة منهم حين تصيب صاروخا ضخما من هذه الصواريخ فإن المنطقة بأكملها تتحول إلى كرة من النار تقضى على القاعدتين الاسرائيلية والمصرية معا ؟

وأشفقت عليه كثيرا لعجزه عن ادراك المشيئة الالهية التى أشلت أيديهم عنا .. وكانت كل المنافذ المؤدية لمسجد سيدنا الحسين مكتظة بالجنود والمخبرين فهناك شخصية شديدة الأهمية من دون الناس المهمين قادمة لصلاة الفجر مع الناس غير المهمين ، وقد بلغت اجراءات الأمن أشدها أمام أبواب المسجد ، حتى أن كثيرا من الناس تراجعوا عن الصلاة فى الحسين وحولوا وجهتهم إلى مساجد أخرى .

اخترقت حاجـز الحراسة بسهولة رغم اكتشافى أننى فقدت بطاقتي الشخصية فقد كنت على يقين ساطع بأننى أمشى فى حراسة الله .

ما أن اقـتربت من بـاب الدخـول حتى اسـتوقفنى ضـابط يسألنى عن هـويتى . نظرت إليـه فإذا هو صديق قديم ، وإذ به يقودنى بنفسه إلى الضريح قبل أن يسمح لأحد بالدخول ، كان غطاء سميكاً من المشمع موضوعا فوق المقام لحمايته من آثار الاصلاحات الجارية بسقف المسجد . ما أن رفع الغطاء حتى هبت من تحته لفحة صهد حارقة تراجع لها شيوخ المسجد فى هلع إلى الخلف وهم يصيحون :

- لا إله إلا الله .

وقال أحدهم هامسا لزميله :

- يبدو أن سيدنا غضبان مما يحدث .

وقال لى الهاتف :

- امسح المقام بيديك على الفور .

ففعـلت ، وإذا بالحـرارة تذهـب والمقـام يبرد ، وتهـب نسـمة كأنها من ريح الجنة معطرة أرجاء المقام ، وإذا بشـيوخ المسجد يصيحون وهم مبحلقين فى وجهـى :

- اللـه أكـبر .. اللـه أكـبر .

وتجمعوا من حولى يربتون فى ابتهاج على صدرى وظهرى ، وأنا لم يكن لى أدنى علاقة بنفسى فى تلك اللحظة وما تلاها من لحظات ، حتى أننى أبصرت نفسى جالسا بمنزل السائق وقد تحلق أفراد اسرته من حولي ونحن نتناول الطعام جميعاً .

أصر السائق على أن يصحبنى ومعه زوجته ليوصلنى الى البلد ، ولما رفضت أن أحمله عبء هذه الرحلة الشاقة بعد كل ما قمنا به من جولات ، أقسم يمينا ألا يتركنى إلا فى بيت والدى بالعزبة .. وقال أبى فرحا مستبشراً بعدما سمعه من السائق :

- اللهم صل على رسول الله . اليوم فقط تحققت الرؤيا .

أخذنى فى صدره واعتصرنى بين ذراعيه القويتين وهو يحمد الله كثيرا .. تذكرت يوم أن قال لى بنبرة حزينة ذاهلة :

- يا بني .. سوف يحاسبنى ربنا عليك .

- لماذا يا سيدى ؟

فحكى لى رؤياه إذ كان يدعو لى بالهدي وصلاح الحال فتلقى أمرا بأن يكف عن الدعاء لى بصفة خاصة وأن يتجاوزنى الى من هم بحاجة الى دعائه من اخوتى وأخواتي وغيرهم . توقف عن الدعاء وقد أخذ به الحزن حتى رآنى وحدثنى عن حساب ربه .

قلت له في فرحة بالغة :

- وأنا أيضاً فهمت الرؤيا .

- بارك الله فيك يا أحمد .. لقد أصبحت أنا المحتاج الى دعائك الآن .

****

مهما حدث فلن أعرف اليأس . وكيف لى أن أعرفه وفيك أملى والرجاء ؟ .. قررت أن ألتف من حول سيد بسيونى بأسلوب جديد . لماذا لا أقتحم عرين أكبر شركائه فى الجريمة راتب أبو عرام ؟ .. صليت ركعتين استخارة ونمت مسلما أمرى إليك .

حين أصبح الصبح أفقت على انقباض صدرى واختناق روحى وكنت أشعر بخوف شديد من أشياء مجهولة . كان الجو مكفهرا ورغم هبوب ريح ساخنة متربة إلا أن السماء كانت تمطر على فترات متناوبة قطرات ضخمة من الماء ، أشعر بلزوجتها حين تسقط متثاقلة على وجهى ..

سائر فى الطرقات بلا هدف . كان موعدنا بعد صلاة الظهر . همى الوحيد أن أخلص من ذلك الشعور الحاد بالكدر الذى استبد بى منذ فتحت عينى على يوم جديد شاءت الأقدار أن يكون يوم لقائى براتب أبو عرام .

أكثر ما كان يؤلمنى أننى كنت فاقد الاحساس بنعم الصباح التى اعتدت أن أحمدك دوما عليها من قطرة ندى لابتسامة طفل أو تفتح وردة على غصنها لتستمع الى زقزقة العصافير وهى تسعى إلى رزقها مع الناس والدواب .

الأولاد بالمئات ذاهبون الى مدارسهم لا يدركون شيئا . تتساوى نضرة الأوجه مع ذبولها أمام براءة العيون واخضرار القلوب . أفواه مفتوحة ونوايا بيضاء .. فكيف لا ينتابنى الخوف على أيامهم بنفس القدر الذى ينتابنى فيه الخوف على أرضى وابنتى ونفسى ودينى ووطنى ؟ ..

وإذا لم يكـن الماضى مبشرا بالخير فمن أين تأتى الطمأنينة للحاضر والمستقبل ؟ .. انه رعب الوجود يصيبنى اليوم فجأة ، وأجدنى أحمل نفسى وحدي مسئولية الفوضي في هذا العالم المعتم اللون ذى الرياح الساخنة وقطـرات المطـر اللزجـة .. (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) .. بل أنت يا أبا راوية الذى تظلم نفسك وتتفنن فى تعميق ذلك الظلم بين الحين والآخر .. مالك أنت بكون يدبره صاحبه . اعرف مقامك جيدا . ما أنت الا روح فى جسد حياته موقوتة بزمن مجهول لن تعرفه مهما أوتيت من علم . ما أنت الا كيان طينى قليل الحيلة مهما أوتيت من قوة . انك عاجز حتى عن التواصل مع ابنتك فما أتعسك !

ظللت أمشى قرابة ساعات أربع دون أن انتبه إلى نفسى حتى صادفت جنازة يسير فيها عدد غير قليل من أبناء الحى الذى قادتنى إليه قدماى . انضممت اليهم بوازع قوى من الرغبة فى المؤانسة ولا شئ غيرها . اخترقت الجنازة العديد من الشوارع الضيقة والحوارى المزدحمة بالباعة الجائلين والاطفال ورواد المقاهى والسائرين مثلى نياما والمهرولين فى كل اتجاه بعيون شاردة يتسابقون جميعا نحو هدف يبدو أنه وهمى غامض . يا إلهى كم تكاثر أحفاد آدم بدرجة رهيبة . تزاحموا فى الشوارع والطرقات والمصانع والمساكن والمدارس والمستشفيات . أحدثوا ضجيجاً مزعجاً فى كل مكان بأصواتهم وأصوات آلاتهم وقنابلهم وعرباتهم وميكروفوناتهم . تكاثرت عوادمهم وطفح كيلها فى المجارى وغازات المداخن والسيارات والطيارات ونفايات الطعام والدبابات والمعامل ومخلفات الاحتراق الآدمى والآلى كافة ، فأصيبت حياتى بتسمم شديد يستعصى على العلاج .

بنفس وازع المؤانسة اقتربت من اثنين فى حوار حميم على بعد خطوات من النعش :

- أنظر ماذا يركب المرحوم الآن .

- انها خشبة ، والمسألة ليست بحاجة إلى أن أنظر .

- أريد فقط أن أذكرك بما كان يصر عليه بالأمس .

- آه .. المرسيدس . كان يتمنى بالفعل ركوب المرسيدس ويصر على ذلك .

قال الآخر فى دهشة تكاد تخلو من السخرية :

- رغم أن عربته البيجو كانت أجمل بكثير من هذه الخشبة .

صلينا على الميت الذى لا أعرفه وواصلنا المسيرة باتجاه المدافن .. وفى غمرة الفوضى والضجيج عند تقاطع شوارع أربعة مرق رجل لا يتجاوز الأربعين من بين السائرين فى الجنازة حتى تجاوزها الى مقدمتها ووقف يرقص فى منتصف الميدان مستخدما أصابع يديه كما لو كان يدق بصاجات معدنية .

كان نصفـه الأسـفل عاريا تماما .. أما نصفـه العـلوى فقد سـتره قميص متماسـك .

تعجبت لذلك الانقلاب الذى حول حالي من قبض الي بسط ، ولكنى لم ألبث أن اهتديت بسرعة إلى السبب . لقد كانت ابتسامته السعيدة البهيجة الغافلة تتحدى كل هذا الزحام البشرى من أحفاد آدم الساعين فى الأرض بضجيجهم وتهافتهم وتلهفهم وهرولتهم فى شتى الاتجاهات ... ولفرط سعادتى بانقلاب حالى أيقنت أن تلك الابتسامة ليست بغافلة وإنما هى ابتسامة العارف الساخر والتى أمدتنى بقدرة فائقة على الجلوس وجها لوجه أمام المجرم العتى راتب أبو عرام .

****

جاءنى فى جلباب بال قذر ، يعاف متسول بائس عن وضعه فوق جسده . كان بصحبته واحد من أتباعه . سحب له مقعدا وهو يقول فى عبودية مقززة :

- تفضل يا بيشـه .

" والبيشه " حسبما أدركت هى تدليل للقب الباشا ، وهى فى الوقت ذاته حجاب وجه المرأة الذى كان سائداً فى مصر حتى الخمسينات ثم اندثر . دهشت للمفارقة اللفظية فالباشا القديم لم يكن يحجب - فى معظم الأحوال - عن فلاحيه الخير الذى يرفل فيه ، أما الباشا من طراز راتب فلأنه لص لا يعرف الطمأنينة ، لابد أن يحتجز لنفسه ما يسرقه من خيرات الشعب ويحجبه عنه ، وبذلك يكون جديراً بلقبه الجديد : " بيشه " .

قال أبو عـــرام :

- هناك عهد بينى وبين كل خصومك وعلى رأسهم سيد بسيونى ألا يعقد أحدنا معك اتفاقا منفرداً ، ولكنى جئتك كرما منى .. أنت لا تعرف هؤلاء الناس مثلما أعرفهم .

وسألت نفسى ان لم يكن هذا هو الزمان الذى يدعى فيه اللئيم الكرم فمتى يكون هذا الزمان ؟

- كيـــف ؟

- لقد كونوا ثراوتهم من صدأ أسنانهم .

عجزت عن فهم مدلوله تماما وان كان انطباعى العام - لما قصده - أنهم

جمعوا ثرواتهم بأقذر الأساليب . لكن لماذا يطعن في قبيلته ؟ . تمالكت نفسى حتى لا أتقيأ وسألته :

- ألست واحداً منهم ؟

قال متباهيا بوضاعته :

- بالطبـع .

حين قضت قرارات التأميم بمصادرة أموال الأغنياء التى توارثوها عن أجدادهم تساءل الناس الطيبون في دهشة : " أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخرياً " .. فكانت الاجابة غضب ونكسة ولعنة ومراكز قوى وسجون ومعتقلات وقطاع عام يصول فيه اللصوص ويجولون . وكيف لا يكون الحال كذلك وقد أصبح المال المتداول فى البلاد مال مشكوك فى شرعيته . ولولا دعاء هؤلاء الناس الطيبين لما كانت معجزة أكتوبر التي تنهال بفضلها الأوسمة والنياشين في كل عام على صدور أهل الفن والرقص والغناء .

هذا " البيشه " الجالس أمامى بدأ حياته " سقاء " أى حامل جوزة للحشاشين فى المقاهى والغرز . ها هو يتفاخر بشرح فلسفته فى جمع ثروته من صدأ أسنانه .. يقول الباشا الجديد :

- أبدأ العملية بعقد صفقة فى الخارج بعدة ملايين .

- حقيقية أم وهميـة .

- ســـــيان .

وأتعجب من ثقته الوقحة فى كشف أوراقه وكأنه لا يعير وجودى أدنى اهتمـام ، ولا يعبأ بالتفكير لحظة فى أى خطر محتمل من جانبى على ضوء ذلك الكشف . بدا لى أنه يتعمد استفزازى بذلك ، لكن استمراره فى ذكر المزيد من التفاصيل أكد لى أن المسألة أكبر بكثير من مجرد استفزازى . انه الغرور بالقدرة على نهب هذا الشعب وكأن ما يفعله أمر طبيعي ، من الشذوذ أن يستهجنه أو يتردد فى القيام به .

– بعد ذلك أذهب إلى أحد مديرى البنوك من آكلى " الدريكسات " لأقترض بضمان المشروع .

– الدريسكات ؟

– يعنى البواكى يا باشا .. الفلوس .. الرشوة .. آه .

– وكيف تعرفه أنه كذلك ؟

– من صدأ أسنانه ولا مؤاخذة .

– لا اله إلا الله .

– ثم أعلنه أن ممتلكاتى بمصر تقل كثيراً عن ربع قيمة القرض وأطلب منه تقييمها ، فتضاعف لجانه " المنتقاه " من قيمتها عشرات الأضعاف ويتم تحويل القرض الى الخارج .

وأتفرس فى وجهه بما بقى فى صدرى من مخزون للصبر .. اسرق وانهب كيفما شئت أيها التعس فإنى أراك تحمل كنوزك بأكملها على كتفيك يوم القيامة .

– وفى الخارج أفض المشروع مع الخواجة ويا دار ما دخلك شر .

– كيف ؟

– أعطيه عمولته وأضع المبلغ فى أى بنك أجنبى .

– وماذا تفعل لو اكتشف الأمر ؟

– لا شئ ... يحجزوا على أملاكى التى لا تساوى شيئا .

ولولا أننى بشر هلوع لتركت لك أرضى عن طيب خاطر فأنت خير استثمار ربانى يرفع رصيدى خصماً من حسابك يوم الحساب الختامى ، حيث ينتهى العمل ويبدأ العلم .. وانتبهت فجأة لقوله :

– هات من الآخـر .

– هـات أنـت .

– أنت الذى طلبت لقائى .

– أريد أرضـى .

– كن واقعيا أكثر مما كنت مع سيد بسيونى .

– كيـــف ؟

– أنا قادر على اقناعه هو والآخرين بمضاعفة القيمة التى عرضت عليك عن كل فدان .. وليس لدى ما أقوله أكثر من ذلك .

– لكنك تعلم أن هذا ظلم صارخ .

– قل لى ما العدالة وأين تقيم ، أتنازل لك عن الأرض فى التو واللحظة .

****

الــزلــزال والثعابين :

تمنيت أن يزلزل الله الأرض زلزالها حتى أرى يوم الوعد ويرى هؤلاء الحثالة يوم الوعيد ، ولما أن وضعت رأسى على الوسادة عصر ذلك اليوم من أكتوبر كادت الأرض أن تميد بى حين أصابنى دوار مفاجئ وخيل الى أن السقف يهتز وأن الفيلا ستنهار فوق رأسى فاستعذت بالله من الشيطان ورحت فى نوم عميق .

حين صحوت كانت مصر تتحدث عن زلزال وعن آثاره المدمرة ، لكنى كنت واثقا أن سيد بسيونى وعصابته لم يصب أحدهم بسوء ، ذلك أن أحدهم لا يعرف الفرق بين سرقة الأرض من المواطنين وسرقة الصواريخ من الاسرائيليين .

فى أكتوبر ايضا ولكن قبل الزلزال بتسع سنوات كان البواس فى اجتماع ثنائى هام بالقاهرة حين قوطع عدة مرات بالرسائل الشفرية العاجلة ، وحين نفد صبره اقتحم عليه مساعده سيسكو غرفة الاجتماع قائلا ان هناك رسالة من جولدا مائير تقول فيها ان لديها تحفظات على النقاط الست المقترحة لفصل القوات ، فانفجر البواس صائحا فى عفوية :

– ما الذى تريـده الآن ؟ .. ألـم تكن هى التى وضعـت هـذه النقاط الست بيدها ؟

ثم صمت قليلا وقال :

– غريبة .. ان اسرائيل فوجئت بقبول مصر لمقترحاتها ومن ثم تريد أن تعيد التفاوض فيما سبق ان اقترحته بنفسها .

وحتى تلك اللحظة كان السادات واثقا من أن " صديقه العزيز " كيسنجر هو الذى وضع هذه النقاط رغم أن البواس أكد له فى أول لقاء بينهما أن واضعها الحقيقى هو مساعده سيسكو .

ارتديت ملابسى على عجل لأشترى الجريدة المسائية ، وما أن هممت بالخروج من غرفة نومى حتى لمحت ثعبانا طويلا يعترض طريقى وقد انتصبت رأسه فى ثبات . عيناه تتأملانى في نظرة أقرب الى الدهشة منها إلى الشر ونية الغدر . تجمدت فى مكانى وقد انتابنى الهلع وشل تفكيرى تماما . مرت لحظات ثقيلة مخيفة سوداء وهويبادلنى النظر بلا حراك أو انفعال .. هس هسك موسى واسكتك ابراهيم وختم عليك بالقرآن الكريم .. رب إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين . فسيكفيكم الله وهو السميع العليم .. وأنزل الثعبان رأسه وزحف متراجعا . بحثت حولى بأقصى ما تمكنت من عجالة عن شئ حاد أضربه به فلم أجد الا كومة من ملابسى الملقاه فى غير عناية على أحد المقاعد . قذفت بها فوقه وأسرعت طائرا خارج الفيلا .. وكان ياسر عرفات أكثر المتشددين فى اتهام السادات بالخيانة والصلح المنفرد مع اسرائيل ، حتى إذا ما قارب عام ١٩٩٤ على الانتهاء دون أن أحرر أرضى رغم تعاقب العديد من وزراء الداخلية على حياتى ومعهم تعاقب ضباط بوليس ووكلاء نيابة وقضاة ومحامين وسماسرة وملاك ، فإذا بياسر عرفات يعلن الطوارئ فى معتقله ومنفاه الاختيارى بغزة ويطلق نيران بوليسه الفلسطينى على الفلسطينيين المطاردين من الاسرائيليين ، وإذا بثعابين أمريكا ، وانجلترا وسيد بسيونى وروسيا وأبو عرام تزحف من روسيا وفرنسا إلى أرض العامرية وأريحا والكويت ، وإذا بمجلس الأمن الأمريكى يعجز مثلما عجزت جامعة الدول العربية عن إخراج

هذه الثعـابين السـامة من أرضـى فى العامرية ومن تحت مقعدى الشاغر فى مجلس الشعب رغم أننى نجحـت فى اخراجها من الكيلو ١٠١ قبل أن أدمن الجلوس فى حديقة منفاى الاختيـارى بالعجمى أصارع وحشة الليل وأعد الشهب السـاقطة .

****

الخـلوة :

(روايـة الجـدار)

أبكيك يا راوية وأنت على قيد الحياة بعيدة عن أحضانى ذلك البعد الكونى الأليم . لكل رجل فى الأرض أنيسة يهجع إليها فى المساء . تعد له طعام العشـاء . يتسامران بكلام الدنيا ويتلامسان فى رفق ومودة . يربتان على ظهور أبنائهما قبل النوم .. أما أنا يا راوية فآه من لوعة الوحدة وآه من قسوة الصمت على أعتاب محطتى الأخيرة . محطة الاعتراف بما آل إليه حالى كما يعلمه مولاى ويشهد بصدقه .

لقد عجـزت عن استرداد أرض أسرتى المنهوبة حـتى الآن وتعطـل تحقيـق حلمى بالخـلوة الى مولاى بعد توزيع الأرض المستردة بين أهل الله وأسرتى . هذا هو الأمر الواقع فـلا خجـل من التصـريح به ما دمت لم أقصر فى السعى .

اننى لم أدع بابا دون أن أطرقه . حتى الأجاويد تعاملت معهم عندما يئست

من الإنس . انني اليـــوم أسلم الرايـة لمن يتقـدم من أجيال أسرتنا الجديدة ، فلم أعد قادرا على استخلاص الاكسجين من نفس الهواء الذى يتنفســه هؤلاء القوم الذين اعتصروا زهـرة عمـرى . انى لســت طـالب مال ولا مجد فكلاهما يورث الاضطـراب ، وإنمـا أنا طـالب أحـلام اختزنت فى السحاب طويلا فحلّ بها النحـس وتبين لى ان معظم الوعود كاذبة وان دنيـا الناس جديرة بالرفض والابتعـاد .. وأنا فى خلوتى المنشـودة لن أشعر باحتقارى للحياة أو بعشقى لها بل أكاد أتصـــور غيابها عن ملكاتى فأتوغل في عزلتى بلا رفيق . وكلما أتوغل سـوف أزداد بعدا عنك يا راوية فلا تحاكمينى بمنطـق الدهماء . كـونى كريمة معى فأنا لم أذنـب حـين سلمت أمرى لصـاحب الأمر ورأيت أن أختـلى به تاركا من ورائى كل شئ دون القرب منه ومحبته . وقـد يمـر زمن طال أو قصـر ، عشت أو مت ، تعود فيــه الأرض إليكم ، لكـنى لن أشـعر ، وان شـعرت فلن أهتم ولن أبـالى .. سوف يكون تجاوزى للناس والأرض وأنواط التكـريم وكلمـات الحـب تجـاوز الاشـفاق لا تجاوز الاحتقـار .

تزوجـى يا راوية وأنجبى واسعدى بحياتك ولكن لا تغفلى تعليم أولادك الفارق الرهيب بين الفناء والبقاء وبين الممر والمقر وبين الحلم واليقظة وبين الملك والملكوت وبين الحال والمقام وبين الشهادة والغيب .

****

(ســـيد بســـيونى)

لم الطمأنينة يا رجـل وكأنما ليست لرحلتك نهاية ؟ .. انى لا أنكر سعادة التألـق والسيادة فى المنافسة ولكن ما أروعها حين تكون بالحق . ورغم ذلك كنت الفائز فى معركتك معى حتى الآن ، وكان فوزك بتفوق عظيم لأنك مدعوم بسطوة الجهل مستند إلى صخرته الصلبة الصلدة التى لا تهزها ريح ولا يذيبها مطر .. لكنها قد تمحى أحيانا فى لمح البصر بصاعقة مفاجئة أو بقنبلة عن طريق الخطأ أو العمد ، وهذا ما تغفل عنه دائما أنت وبطانتك .

عشت على القمة بعقلية سكان السفح وعشت فى السفح متعاليا بثروتك ، وهكذا حرمت نفسك من الحياة الحقيقية فلا أنت راحل ولا أنت عائد وإنما مجرد زفرة كراهية لا أثر فيها لروح الكرم أو السخاء أو الانسانية .

سوف لا يكون هناك معنى ذا فائدة لأن أستمر فى توصيف موقفك من الحياة والذى انعكس بالتالى على موقفك منى ، غير أنى أذكرك اليوم قبل الغوص فى خلوتى حيث يكون مصيرك النسيان . أذكرك من باب العبادة وأطل على شخصك البائس من نافذة التأمل فى غرفة الحياة التى لم تعرف كيف تعيشها أو كيف تحبها ، فأهل الدنيا يعلمون تماما أن حب الحياة هو حب دوام ما هو موجود بها .. يا الهى .. اننى لم أر فى حياتى مخلوقا أكثر غباء منك أيها الرجل . أنت وزوجتك لا تنجبان .. وأرضى التى نهبتها لم تحقق لك معجزة الانجاب . ومشكلتك يا سيد بسيونى انك لم تذكر الموت حتى الآن ، بل لعلك أمضيت عمرك كله هاربا متهربا من السؤال الذى يطاردك :

- إلى من تؤول كل مسروقاتك ؟

ولعل زوجتك قد استسلمت لليأس أخيرا فلم تعد تلتقى خلسة بالأطباء والدجالين المقربين .. أما أنها ما زالت تهتم بتدليل نفسها وقد تجاوزت الأربعين فذلك أمر لا علاقة له بالحمل وإنما مرجعه إلى أن شيئاً فى قرارة نفسها يحتقرك ومحال أن ينام الاحتقار مع اللذة على صدر امرأة شبقة للحياة محرومة من الحب ممنوعة بأمر الله من الأمومة .. والله عدل يا سيد يا بسيونى !

****

(السـيد الـوزيـر)

لو دامت لغيرك ما آلت إليك يا معالى الوزير . أين أنت الآن ؟ .. فرد عادى من أفراد الشعب ؟ .. أبدا .. عضو مبرز فى مؤسسة هامة ؟ .. أبدا .. انما أنت سـجين بيتك يحرسك الجنود من الارهابيين . حركتك محسوبة . حريتك مكبلة . قلت لى وأنت فى عنفوان سلطتك انك ستعتقل اللص وتنتزع الأرض منه وتعيدها بقوة القانون إلى أصحابها . ترى هل كان قانونك مغايرا لقانون البلاد أم أنك كنت تتسلى برجولتى ، وما دافعك إلى ذلك ما لم يكن سيد بسيونى قد اشتراك بقانونه وصدأ أسنانه ؟

لو لم تهدنى يا مولاى إلى الخلاص بالخلوة لذهبت إلى الكيلو ١٠١ ومعي رجالى وقمت باحتلال مساحة منه تعادل مساحة أرضى المسروقة ، فحين تسلل اليهود من الثغرة تسلل أتباع سيد بسـيونى إلى أرضى والعين بالعين والسن بالسن . وأما اليهود فحصلوا على كل شئ وأما أنا فلم أحصـل على شـئ . وأما

حكام العرب فرحبوا برابين فى الدار البيضاء ، وأما المحامـون والقضاة ورجال الشرطة ووكـلاء النيابة فلم ألق منهـم عونا ولا ترحيبا باسـتثناء ذلك الأفاق الذى فتـح لى ذراعيه وراح يحتضننـى ويقبـلنى وأنا لا أذكره .

المقعد يا سيادة الوزير هو الذى يستعبدك مثلما استعبد من كان قبلك ومثلما يستعبد من جاء بعدك ، وأنا هارب إلى مولاى من أى مقعد قد تضعه الدنيا تحت مقعدتى .. انى يا فخامة الوزير أنشد مقعد صدق عند مليك مقتدر .

****

(الكيلو ١٠١.. القنـاع)

فى خلوتى أتحرر من كابوس القناع فمادته كراهية ضاقت بها عيناى فما بال القلب الذى ينشد المعرفة الربانية بجلالها وجمالها ؟ .. يسقط القناع أمامى فتحيله تجليات الأنوار الى عناصره الأولية لتذروه الرياح .. وعناصره تراب ومال حرام وحسن الجاويط وضابط شرطة مرتشى ومحام عميل ووكيل نيابة مزور وقطاع طرق وتجار مخدرات وصدأ أسنان ومديرو بنوك خربو الذمة ولجان مأجورة وجربوع وسيد وراتب وحكام يقسمون رحمة الرب بمعرفتهم وشعب منهك يعانى من دوار الرأس ونساؤه مستنزفات ورجاله مستهلكون لكثرة الاستخدام ... وأنا كما قلت من قبل مختص بفهم النذالة موهوب من الوهاب باكتشاف مكامنها عند الخلق ، فالخلوة إذن منقذى ومخرجى وخلاصي ومن اطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الالهية كان اطلاعه فتنة عليه وسببا لجر الوبال عليه .

****

اياك أن تظنى بى الهروب يا راوية ، فأنا من شرف بتمزيق القناع بينما أدى غيرى له التحية . أنا من أشار إليه وصرخ بأعلى صوته وأنفق معظم ما يملك لكشف ستره .

يكـفيك فخـرا أننى لم أفكر يوما فى ارتدائه فهو رخيص مباح للجميع ، وحين أهرب من الناس إلى رب الناس فهذا هو قلب الحكمة وكمال المعرفة وذروة الشجاعة . ان مؤاخاة زمن القناع أو مصالحته أو مهادنته يعد ارتباطا بالعالم الخارجى ، وأى ارتباط بهذا العالم هو خوف منه ، وأنا لا أخاف الا مولاى ولهذا بدأت الخلوة . لا تسألينى ما زمنها فلست أعرف . لا تسألينى إلام تنتهى فلست أعرف ، ولا طريق لأنوار المعرفة الا بعد خلاص القلب للمولى ، وإلا فكيف يشرق قلب انطبعت فى مرآته صورة الكون ؟

****

(الشـيخ حمــودة أبو الحمــد)

- اتق الله يا عـم الشيخ .

- ....

- قناعــك .

- ....

- قد يحين أجلك فى التو واللحظة .

- ....

- أنا من جواسيس القلوب .

- ....

- أنت أكثر العارفين بكذبك ونفاقك وضلالك .

- ارحمنى يرحمك اللـه .

****

(دليـــــله)

يا ويلى وويلتى ويا رمز جاهليتى . أستحلفك بالله أن تدعى لى بالغفران أينما كنت وكيفما كنت .

لقد عزمت على الرحيل دون أن أعرف وقت العودة فساعدينى فى طلب الرحمة لى ولك ولا تقنطى .

قادر مولاى على أن يحيل قلبك من قنبلة شر موقوتة إلى قطعة من البللور . شريكتى أنت فى الشهوة حين كان الظلام يعمى قلبينا وجوارحنا . صدقى أولا تصدقى يا أخـتى المسـكينة - مثلى تماما - أننى لم أعد أنشد الا شهوة واحدة هى شـهوة القرب من مـولاى . انى أرغب فى الفناء فى شـهوتى المبتغـاه حتى لا أصير أنا .

****

(الجـــنرال أيزاك شــارون)

اتهمتك بالجنون حين دعوتنى لزيارتك بمنزلك فى تل أبيب فكم كنت - أنا - ساذجا . هنيئا لك يا بن العم فثغرتك التافهة الخطيرة بين جيشينا قد انتهت بكم إلى امتلاك الشرق الاوسط بأكمله ، ومن المدهش أن سمسار الثغرة البواس قد توارى لأداء دور آخر بينما حل محله سمسار آخر شمعى الوجه مشوه المعالم مخيف النظرة اسمه واين كريستوفر فالاغتصاب مقترن دائما بالتشوه وبالسمسرة . واننى أسمع الحوار الدائر بيننا فى مكان ما دون أن نلتقى رغم أنه ما أسهل أن نلتقى فأنا فى خلوة لا تفهمها يا ايزاك :

- كنت تعرف مقدما ما سوف يحدث كله ؟

- بل كنت أتوقع بعضا منه .

- لقد اعترفت بذكائى ، فكيف لم أتوقع مثلما توقعت ؟

- لأننى يهودى ولانك مسلم .

- كيــف ؟

- أنا أملك العقل فقط ، وأنت تملك العقل والقلب .

- اذن فكفتى أرجح ، ورغم ذلك .....

- العقل والقلب لا يتفقان ، فكل منهما يعوق حركة الآخر .

- نختلف حقـــا .

- هل تذكر لقاءنا حين تفاخرت بأنك غير مسلح .

- نعـــــم .

- كان بإمكانى أن أقتلك .

- لا .

- كيـــــف .

- كانت رشاشات الجنود مصوبة إلى قلبك من أعلى التبة فى انتظار اهتزازة واحدة من يمناك .

- إذن فلقد أعملت عقلك وناورت بقلبك لتظهر التفوق والسيادة .

- نختلف ثانيـة .

- لابد أن نختلف بالطبع والا فبماذا تفسر لى ما أقدمت عليه ؟

- الخـــلوة .

- نعـــم ؟؟

- وجدت فى قلبى الكفايـــة .

- وهل هذا حل صحيح لمشكلة الحياة إن جاز أن نسمى الدنيا مشكلة ؟

- لقد اخترت " الغـم " .

- أى غـــم ؟

- الخـوف من اللـه .. ألم تقرأ فى توراتكم شيئاً ؟

- قليــلاً .

- عـد إلى سـفر التكوين فى العهـد القديم واقـرأ " من ازداد حكمة ازداد غمـا " .

وتصم أذنى حينذاك عن ايزاك وعن أى شئ سواك ، ولتكن أرضى قربانا للقرب يدفع بى إلى برزخ المحبة ، وإن كان العقل عائقى فعليه اللعنة أيها الجنرال فمولانا لم ينعم علينا به ليحول بيننا وبينه وإنما ليصلنا به محفوظين من عوارض التلوين محفوفين بالبهجة مكرمين بالفرحة مغمورين بالرحمة . وداعا يا إيزاك بثغرتك وعقلك . وداعا يا أرضى بثغرة الجاويط وعقل الجربوع .. فالقناع قد استحال عندي إلى تراب بعثرته الرياح .

****

(الشــــرطة)

علموك يا مسكين وأنت طالب في كلية الشرطة أنك الأعلى ومن عداك هم الأدنى .. توقف سائق التاكسي فى الطريق وتقول له وهو فى عمر أبيك :

- هـات رخصك يا روح أمـك .

وعندما يطاردك الارهابيون بالرصاص والقنابل ، تجرى لتحتمى بالاهالى . تبحث عن النجاة بسد الثغرة التى توهمتها بينك وبين مواطنى بلدك ، فبئس العبد عبد عتا وبغى ونسى المبدأ والمنتهى . دعنى أذكرك يا أخى بأن تذكر دائما وأنت تمشـــى فى خيــلاء أن فى بطنك خـراء كسائر الخلق وأن أولك نطفة مـذرة

وآخـرتك جيفـة قذرة .. اخلع قنـاعك فانى تاركـك إلى خلوتى مع الذى قال إن " العظمة إزارى والكـبرياء ردائى فمن نازعنى فيها قصمته " . لو خلعت القناع لن ترتشي ولن يشـتريك سيد بسيونى ولن تساوم على كرامتك لا بأموال الجـربوع ولا بأموال قارون .

كنت طفلا صغيراً أيام ثار الشعب فى ١٨ و ١٩ يناير عام ١٩٧٧ .. كان أندادك يهربون من الشعب كالجرذان ويختبئون فى المنازل . لك الله أيها العالم الذى كتب عليه أن يظل ثالثا .. والحمد لله فإنى مللت العوالم كلها : الأول والثانى والثالث والحادى عشر .

لقد أضاعت ثغرة الجيش أرضى فأغلق ثغرتك الوهمية التي تورثك الكبر والانتفاخ بلا داع .. أما كان من الأجدر بك وأنت خادم الشعب أن تقف بجانبي وتؤدى عملك بأمانة فترضي ضميرك وترضى ربك حتى أستعيد حقى ؟

اننى فى حل من نصحك فلقد أصبحت فى عمر ينقص وذنوب تزيد ، وانى أرى في كثرة مشاهدتك أنت وأشباهك على ما مضي من عمر ، تهوينا للفساد على الطبع ، فالاعتياد آفـة وأنتم يا شرطتنا مثلكم كمثل الكير إن لم يحرقك بشرره علق بك من ريحه .. ففى خلوتي تكون السلامة من فتنكم والخلاص من شروركم .

****

(البـــــواس)

كنت تطبق ما جاء ببروتوكولات حكماء صهيون تطبيقاً نموذجياً ، لا بأسلوب الطالب الذى يحفظ الدرس فيسمعه لأستاذه نصا وروحا ، وإنما بأسلوب المبدع الخبيث الذى يكره كل ما هو غير يهودى ، وربما كنت تكره جنسيتك الأمريكية فليس هذا بمستبعد عليك . لولا أكاذيبك المتقنة لما وضع سيد بسيونى جراراته الزراعية على أرضى وكتب عليها اسمه بالبنط الكبير . لولا خدعك الدنيئة لما تمكن السمسار العبد من تهيئة الطريق لسيده وتمهيده مثلما مهدت بنقاط مائير الست لفصل القوات . هل ألعنك فى خلوتى ؟ ... ليس هذا من آداب دينى . ماذا تفيدنى ذكراك غير تشويش القلب ووسوسة الشيطان بمؤخرة دليلة وسوءة مباحثنا وخيبة تكريمنا وأجاويد الشيخ حمودة وفدادين الشيخ حمودة ؟ .. لقد أخطأت يا سادات رغم انتصارك العظيم حين صدقت السمسار ، فأصل كل عداوة اصطناع المعروف إلى اللئام .. ما علينا فقد حدث ما حدث وكله مكتوب ، أما أنا فإلى وحدتى ولن أكون وحيدا لأنى سأخلو إلى مولاى ، إن شئت أن يناجينى قرأت قرآنه وإن شئت أن أناجيه قمت للصلاة له .

****

لن أنسى دهشتك ما حييت ، رغم إنى كنت أكثر منك دهشة وانبهارا وذهولا . سوف أذكرك دوما فى خلوتى بالخير وأدعو لك ولأسرتك بهناء البال ورضا النفس ، غير أنه من المؤسف أننى لا أتذكر اسمك ، لكن ما قيمة اسم انسان ؟

حوار العيون يؤكد ثقتك بأننى زنديق عتيد . حديث عهد بالتقوى ، لا ينتظر بأى حال من الأحوال أن تقع على يده كرامة أو أن تحل به بركة أو أن يسطع فى قلبه اشراق .

أنا واثق أنك كنت تفكر - وقتئذ - فى أحوال الدنيا وتتعجب أن يتسع رزقك فى ذلك اليوم على يد رجل يحبو نحو العبادة كمخرج عاجل من أزمة طارئة لا يلبث من بعدها أن يعود إلى زندقته . وسألتنى :

- الباشا من أين ؟

- من كوم حمادة .

- يهيئ لى أننى أعرفك .

- لكثرة نظرك إلى فى المرآه هيئ لى أنا الآخر ما هيئ لك .

- وأين تعمل ولا مؤاخذة ؟

كانت صدمتى فى الجيش أقوى من احتمالى ثرثرة عابرة مع سائق تاكسى .. قررت أن أغلق عليه باب المحاورة .

- فى الدنيا ؟؟

لم ييأس . انى معجب بخفة ظله وهو يواصل استدراجى إلى الحديث معه :

- عيناك تخفيان تجربة شيخ رغم شبابك المتدفق .

- مع اعجابى بذكائك أرجو أن تتركنى لحالى وتسكت .

فى البدء كانت متعتى أن أحيرك وأتسلى بدهشتك ، وفى المنتهى سقطت أسيرا فى حيرتى ودهشتى حين تجلت علىّ أنوار لا عهد لى بها وفيوضات لا قبل لى بها ، وكأن استقبال الخير ليس بالأمر الهين كما يظن الناس . إن مستقبِل الخير أحوج بكثير إلى عون الله من مستقبل الشر .. هكذا تعلمت من تجربتى معك .

أيها السائق الطيب يا من لا أذكر اسمه . لولا وجودك بجانبى في كل ما تلقيت من نفحات لظننت أننى واهم ولما اختلفت عن ايزاك شارون فى شئ .. كنت لى بمثابة القلب لحظة ذهول العقل ، لولا جولتك بى بين آل البيت الكرام لما خطرت ببالى فكرة الخلوة يوما ما ، ولما كنت فى مجلسى هذا تحت تكعيبة العنب تظللنى سماء صافية وتحيط بى الملائكة من كل جانب ، فأنا لم أعد أفعل شيئا غير السباحة فى نهر المحبة .

لا أستقبل مخلوقا غير الخادم الذى يحضر لى الطعام وينظف المكان . لن أتقن عملى قبل أن أجيد السباحة ، فقد سبق أن عملت كثيراً من قبل وباء عملى بالفشل . والحق أنى كرهته وكرهت أى نفع يجئ منه ، إذ يضطرنى إلى مخالطة اللصوص وأسافل القوم وأكابرهم مثلما يضطرنى إلى طول الأمل وينزلق بى إلى سخافة الاستئناس بغير الله .. وعندما أتقن السباحة

فليفعـل اللـه بـى مـا يريد .

جاء الهاتف متسائلا فى دهشة وما كان له أن يدهش :

- اذن فخلوتك موقوته ؟

- بالطبـع .

- لكنك لم تفصح عن هـذا منذ البدايـة .

- نعـــم .

- وأعلنـت تسليم الرايـة لجيل جديد .

- فى كل ما أقول وأفعل أتلمس طريقي بنور الله الهادى.

- وماذا تنوى أن تفعل بعد انتهاء الخلوة ؟

****

أحبــك لأنك فصــل الهاتف .. يكثر من مجيئه بمجيئك ، وكلاكما يجئ بالخير والالهام . انى بحـاجة إلى سيل من المطر أغسل به نفسى . أطهر به قلبى : أصفي به روحى من أدران الدنيا . أيها الهاتف الحبيب لقد نجحت فى تأدية رسالتك . أبشـر .. وأهطـل يا مطر الدنيا كله . اكتسح رفات الأقنعة وأغسل ونظف وطهر .. انى أرى باب الصفاء يفتح لى فى مساء جميل يغنى فيه القمر وترقص النجوم على أناشيد المحبة ، والصمت يسبح فى الفضاء بحمدك ويبث لى نور الأمــل فى عفوك ورحمتك ياذا الجلال ..

ويوم تأذن لى بنهاية الخلوة ولو بعد ألف عام فسوف أخرج الى الخلاء مناديا :

" أيها الناس . من عاش مات . ومن مات فات . وكل ما هو آت آت " .

سعيد سـالم

١٩٩٤/١١/٢٣

* * *

صدر للمؤلف

١ - جلامبو	روايــــة	١٩٧٦	اسكندرية
٢ - بوابة مورو	روايــــة	١٩٧٧	اسكندرية
٣ - عمالقة أكتوبر	روايــــة	١٩٧٩	القاهرة - هيئة الكتاب
٤ - آلهة من طين	رواية طبعة أولى	١٩٨٥	القاهرة - هيئة الكتاب
- آلهة من طين	طبعـة ثانيــة	١٩٨٦	دمشق - دار الجليل
٥ - عاليها أسفلها	رواية طبعة أولى	١٩٨٥	دمشق - وزارة الثقافة
- عاليها واطيها	رواية طبعة ثانية	١٩٩٢	دار ومطابع المستقبل - مصر
- عاليها أسفلها	رواية طبعة ثالثة	١٩٩٥	القاهرة - هيئة الكتاب
٦ - قبلة الملكة	مجموعة قصصية	١٩٨٧	دمشق - اتحاد الكتاب العرب
٧ - الشــرخ	روايــــة	١٩٨٨	دمشق - دار طلاس
٨ - الأزمنــة	روايــــة	١٩٩٢	مصر - دار الهلال
٩ - الموظفون	مجموعة قصصية	١٩٩٢	دمشق - اتحاد الكتاب العرب
١٠ - الجائزة	مجموعة قصصية	١٩٩٤	قايتباى للطباعة والنشر - مصر
١١ - الفلوس	روايــــة	١٩٩٥	دار ومطابع المستقبل - مصر
١٢ - رجل مختلف	مجموعة قصصية	١٩٩٦	القاهرة - هيئة الكتاب
١٣ - الكيلو ١٠١ الوجه والقناع	روايــة	١٩٩٧	الاسكندرية - دار ومطابع المستقبل بالفجالة وبيروت

روايــة تحت الأصــدار

١ - حالة مستعصية	مجموعة قصصية	دار الهلال - القاهرة
٢ - هوى الخمسين	مجموعة قصصية	كتاب اليوم - القاهرة
٣ - الممنوع والمسموح	مجموعة قصصية	مختارات فصول - هيئة الكتاب
٤ - قانون الحب	مجموعة قصصية	دار ومطابع المستقبل
٥ - رحيق الروح	مجموعة قصصية	
٦ - أقاصيص من السويس	مجموعة قصصية	

" تعريف بالكاتب " سعيد سالم "

سعيد محمود سالم :

من مواليد الاسكندرية ١٩٤٣ - عضو اتحاد كتاب مصر وعضو اتحاد الكتاب العرب وعضو هيئة الفنون والآداب وعضو اتحاد الكتاب العرب وعضو هيئة الفنون والآداب وعضو أتيليه الفنانين والكتاب بالاسكندرية وعضو اللجنة المركزية للنصوص الدرامية بالاذاعة والتليفزيون . حاصل على ماجستير الهندسة الكيميائية من جامعة الاسكندرية ١٩٦٨ - مدير عام التخطيط والمتابعة بشركة الورق الاهلية بالاسكندرية " عنوان المنزل " : ٥ شارع على باشا ذو الفقار شقة ١٠ - مصطفي كامل - الاسكندرية - تليفون : ٥٤٦٢٨٦٩ .

أعماله الأخرى

*** المســـرح :**

الجبلايه - مسرحية كوميديه ٣ فصول - الدكتور مخالف - مسرحية كوميديه ٣ فصول .

الدراما الاذاعيه :

حجر النار - العائد - سباق الوهم - بوابة مورو - زارع الأمل - رحلة الصعود والهبوط - رجال من بحرى .... وجميعها مسلسلات اذاعيه شهرية فى ٣٠ حلقة باذاعتى الاسكندرية والقاهرة .

*** فى النقد الأدبى :**

مجموعة مقالات نقديه عن أعمال بعض الكتاب العرب نشرت بمجلات وجرائد مختلفة .

أهم الجوائز :

(١) الجائزة الاولى عن رواية " الأزمنة " فى مسابقة أحسان عبد القدوس للرواية ١٩٩٠ .

(٢) جائزة الدوله التشجيعية فى القصة لعام ١٩٩٤ عن مجموعة (الموظفون) الصادره عام ١٩٩١ عن مطبوعات اتحاد الكتاب العرب بدمشق .

***